أحلام الربيع

رمضان مصطفى سليمان

أحلامُ الربيع

لا تلومي الربيعَ إذا ولّى،
فما كان الربيعُ يومًا خائنًا،
ولا كانت المواسمُ تعرفُ الغدر،
لكنّ الأحلامَ حين تُفرِطُ في التعلّقِ بالورد،
تنسى أنَّ للوردِ عمرًا،
وأنَّ للعطرِ رحلةً قصيرةً
بين مهدِ الغصنِ وكفِّ الريح.
كانت أحلامُنا ورديّةً
كفجرٍ ينهضُ من بينِ أهدابِ الغيم،
نرسمُها على صفحةِ الأفقِ
فنراها أكبرَ من المسافات،
وأقربَ من نبضِ القلب،
كأنّها طيورٌ من ضوءٍ
لا تعرفُ الهبوطَ إلا على شرفاتِ الرجاء.
لكنَّ أفقَنا، يا رفيقةَ الروح،
ما عادَ ذاك الأفقَ الفسيح؛
شاختْ ملامحُه،
وتكسّرتْ على جبينهِ تجاعيدُ الانتظار،
حتى بدا المساءُ فيه
شيخًا يتوكّأ على عصا الغروب،
يحصي ما تبقّى من نجومٍ
ثم يتركها لليلِ

كي يُتمَّ نشيدَ الغياب.
وشاخَ القلبُ أيضًا،
لا لأنَّ السنينَ مرّتْ،
بل لأنَّ الخيباتِ مرّتْ أكثر.
فكلُّ خيبةٍ كانت عامًا،
وكلُّ انتظارٍ كان دهرًا،
حتى أثقلَ الوهنُ أجنحتَه،
فصار يخفقُ ببطءٍ
كعصفورٍ بلّله المطر
وأعياه التحليق.
أصابنا الوهنُ، نعم،
لكنّه وهنُ الحالمين،
لا وهنُ المنكسرين؛
وهنُ من أرهقتهم كثرةُ الضوء
بعد طولِ التحديق،
وأوجعتهم كثرةُ الأمنيات
بعد طولِ الصبر.
فصرنا نمشي إلى الأيام
بخطوٍ يشبهُ الهمس،
ونحملُ في أعينِنا
بقايا فجرٍ لم يكتمل.
ها هو الواقعُ،
ذلك النهرُ العنيد،
يسبحُ ضدَّ التيار،

ويأبى أن يطاوعَ قواربَ الأمنيات.
كلّما ألقينا فيه وردةً
أعادها إلينا شوكًا،
وكلّما بذرنا على ضفافهِ حلمًا
أثمرَ صمتًا وحنينًا.
كأنّه يختبرُ صبرَنا،
أو يعلّمُنا أنَّ الطريقَ إلى النور
يمرُّ أحيانًا
في دهاليزِ العتمة.
ومع ذلك،
لم يبقَ لي من هذا العالمِ
إلّا وجهُكِ.
وجهُكِ الذي يطلعُ في داخلي
كلّما انطفأتْ المدن،
ويزهرُ في روحي
كلّما ذبلتْ المواسم.
أراكِ
فأرى الربيعَ كلَّه
مختصرًا في ملامحك:
في ابتسامةٍ تشبهُ انبثاقَ النهر،
وفي عينينِ كأنّهما
سماءٌ غسلتها نجمة.
أنتِ قمرٌ مضيء،
ليس لأنّكِ تُنيرينَ الليلَ فقط،

بل لأنّكِ تُنيرينَ ما هو أعمقُ من الليل:
تُضيئينَ وحشةَ القلب،
وتبدّدينَ ظلالَ التعب،
وتجعلينَ من الحزنِ
نافذةً يطلُّ منها الأمل.
يا قمري البعيدَ القريب،
يا مفارقةَ النورِ والحنين،
كيف استطعتِ أن تكوني
ملاذًا وعاصفة؟
سكينةً واشتياقًا؟
صمتًا يغنّي،
وكلامًا يورق؟
فيكِ يجتمعُ الضدّان،
فيأتلفانِ كما يأتلفُ
الليلُ بالفجر،
والدمعُ بالابتسام.
أمّا كلماتُكِ،
فهي صمّاءُ بكماءُ حينًا،
لكنّ صمتَها أبلغُ من البيان،
وسكونَها أعمقُ من الضجيج.
فكم من كلمةٍ لم تُقَل
قالتها عيناكِ،
وكم من معنىً عجزَ عنه اللسان
أفصحتْ عنه رعشةُ اليد،

وكم من حكايةٍ
نامت بين شفتيكِ
وأيقظها في داخلي
صدى التأويل.
إنّ بعضَ الصمتِ كلام،
وبعضَ الغيابِ حضور،
وبعضَ العيونِ قصائدُ
لا تحتاجُ إلى حروف.
وأنتِ،
كلّكِ قصيدة؛
مطلعُها شوق،
ووسطُها وجد،
وخاتمتُها
دعاءٌ طويلٌ
أن لا يذبلَ الوردُ في قلبِ المساءِ.
وكلماتُكِ حين تمرُّ بي
تنسابُ كنسيمِ الصبا،
رقيقةً، عذبةً،
تحملُ رائحةَ البساتينِ الأولى،
وتوقظُ في القلبِ
أغنياتٍ نامتْ طويلًا.
إذا همستِ،
اهتزّتْ في الروحِ أوتارٌ خفيّة،
وإذا ابتسمتِ،

أورقَ في الصدرِ غصنٌ يابس،
وعادَ للعمرِ
طعمُ البدايات.
يا نسيمَ الصبا،
يا سرَّ اللطفِ إذا تكلّم،
يا سحرَ الحرفِ إذا تأنّق،
في حضورِكِ
تصيرُ الأشياءُ أجمل:
الوقتُ أقلُّ قسوة،
والمساءُ أقلُّ وحدة،
والغربةُ أقلُّ مرارة.
كأنّكِ اللمسةُ التي تُصلحُ
ما أفسدتْه الأيام،
والنغمةُ التي تعيدُ
للقلبِ ميزانَه.
فإن ولّى الربيعُ يومًا،
ففيكِ ربيعٌ لا يذبل،
وإن شاخَ الأفقُ،
فعيناكِ أفقٌ لا يشيخ،
وإن أوهنتنا الحياةُ،
فصوتُكِ
ماءٌ يردُّ إلى الروحِ نضارتها.
لهذا لا أخافُ الرحيل،
ما دام فيكِ مقام،

ولا أخشى ذبولَ المواسم
ما دام في قلبكِ
حديقةٌ من نور.
أحلامُ الربيعِ لا تموت،
هي فقط تغيّرُ شكلَها؛
مرّةً تكونُ وردة،
ومرّةً تكونُ نجمة،
ومرّةً تسكنُ وجهًا
نحبّه حدَّ الخلود.
وأنتِ
أجملُ أحلامِ الربيع،
حين يصيرُ الحلمُ حقيقة،
ويصيرُ الجمالُ وطنًا،
ويصيرُ القلبُ
مطمئنًّا
كأنّه أخيرًا
وجدَ الطريق.
فدعيني أعلّقُ على نافذةِ المساءِ
بعضًا من ضوءِكِ،
وأزرعُ في دروبِ العمر
خطاكِ،
لعلّ الربيعَ إذا عادَ يومًا
يعرفُ أنّ هنا
قلبًا ما زال ينتظر،

وأنّ هنا
حلمًا ما زال يزهر،
وأنّ هنا
حبًّا تعلّمَ من الفصول
أنّ أجملَ ما فيها
ليس الورد،
بل من يُشبهُ الورد.
هكذا يبقى الربيعُ فينا،
لا فصلًا يرحل،
بل إحساسًا يقيم،
ولا وردًا يذبل،
بل حبًّا يتجدّد،
ولا حلمًا عابرًا،
بل روحًا كلّما أوهنتها الحياة
أنعشها وجهُكِ
كأوّلِ صبحٍ في الدنيا.

الأنين بين رمادِ الأمسِ ووهجِ الرجاءِ

يا قومُ...
أما آنَ للجرحِ أن يبوح؟
أما آنَ للوجعِ أن يُفصِحَ عمّا استترَ خلفَ صمتِ السنين؟

هزِلَتْ قضيّتُكم، لا لأنّها كانت واهنةً في أصلها،
بل لأنّها أُثقِلَت بخيباتٍ تترى، وثُرِكَت في مهبِّ الريحِ بلا سَنَد.
فلا لحمٌ هناك يُوارِي العار، ولا دمٌ يجري في عروقِها ليُحييها،
حتى العظامُ، تلك التي كانت صلبةً كالعهد،
تعرَّفتها الذئابُ... فنهشت، وافترست، وأتخمت من بقاياها.

أواه يا قوم...
كيف صار الجسدُ طيفًا؟
وكيف غدا الصوتُ صدىً يتردّد في فراغٍ لا يُجيب؟

بَلِيَتْ قضيّتُكم،
فلم تعد رايةً تُرفَع، بل خرقةً تلوح،
ولم تعد صرخةً تُسمَع، بل همسًا يضيع.
صارت هيكلًا يتهدَّم،
تتساقط أضلاعهُ كأوراقِ خريفٍ حزين،
تتكسّر أركانهُ كقلبٍ خذلتهُ الآمال.

ضمُرَت... يا قومُ ضَمُرَت،
حتى انكمشت إلى حدودِ بلديّةٍ باردة،
تتسلّط فيها الأيادي الغريبة،
وتتحكّم فيها العيونُ التي لا ترى إلا مصالحها،
ولا تسمع إلا صليلَ أطماعها.

أيُّ انكسارٍ هذا الذي يُقاسُ بالأمتار؟
وأيُّ وجعٍ هذا الذي يُختزلُ في خرائط؟

أوضاعُها مجهولة...
كأنها ليلٌ بلا قمر،
أو بحرٌ بلا شاطئ.

ومصيرُها لا يُعلَم...
كأنّها سفينةٌ فقدت بوصلةَ الاتجاه،
تتخبّط بين موجٍ وموج،
لا رُبّانَ يقود، ولا نجمةَ تُرشد.

يا قومُ...
إنّ عدوَّكم ليس وجهًا عابرًا،
ولا ظلًّا زائلًا،
إنه قلبٌ لا يعرف اللين،
وروحٌ لا تسكنها الرحمة.
فلا تظنّوا أن ابتسامةً زائفةً تُخفي نواياه،
ولا أن وعدًا معسولًا يُبدّل طباعه.

هو الذئبُ إن لبسَ ثوبَ الحمل،
والنارُ إن تزيّنت بلونِ الزهر،
والسيفُ إن غُلِّفَ بغمدٍ من حرير.

يا قومُ...
ليس أمامكم إلا الجلاء،
لكن أيُّ جلاءٍ ذاك؟
أجلاءُ خوفٍ أم جلاءُ كرامة؟
أفرارٌ من المواجهة أم نهوضٌ نحو الحياة؟

حزّموا... نعم، حزّموا،
لكن لا تشدّوا الأمتعة فقط،
بل اشدُدوا العزائم،
اربطوا على القلوب،
وأوقدوا في الصدور نارَ اليقين.

حزّموا ذكرياتِكم كي لا تضيع،
واحملوا أسماءكم كي لا تُنسى،
واكتبوا على جبينِ الطريق:
"هنا مررنا... ولن نُمحى".

يا قومُ...
إنّ القضيّةَ لا تموتُ إذا ماتت الأجساد،
ولا تفنى إذا تكسّرت العظام،
إنها تسكن في الكلمة،
وتنبض في الذاكرة،
وتتوهّج في العيونِ التي لم تُطفئها الهزائم.

فإن ضاعت الأرضُ يومًا،
فلا تُضيّعوا المعنى،
وإن انطفأ الصوتُ حينًا،
فلا تُطفئوا الصدى.

اجعلوا من الحزنِ حافزًا،
ومن الألمِ أملًا،
ومن الدمعِ نهرًا يغسلُ وجوهَ الغد.

يا قومُ...
لا تقولوا انتهى الأمر،
فالأمرُ لا ينتهي ما دام في الصدرِ نَفَس،
ولا تقولوا ضاعت القضيّة،
فالقضيّةُ تضيعُ فقط حين نُسلِّمُ بضياعها.

إنّ الليلَ مهما طال،
لا بدّ أن ينكسر،
وإنّ الفجرَ مهما تأخّر،
لا بدّ أن يُبصِر النور.

فكونوا للفجرِ وعدًا،
وللنورِ طريقًا،
وللقضيّةِ نبضًا لا يخبو.

يا قومُ...
عودوا إلى أنفسكم،
ففيها البداية،
ومنها الطريق.

لا تنتظروا من يُنقذكم،
فما من منقذٍ يأتي من خارجِ الروح،
ولا من يدٍ تُمدُّ إن لم تمتدّ أيديكم أولًا.

كونوا أنتم الحكاية،
وأنتم الرواية،
وأنتم الصرخةُ إذا صمتَ الزمان.

فإن سقطت قضيّتُكم،
فاحملوها من جديد،
وإن تكسّرت رايتُكم،
فانسجوها من خيوطِ الصبر.

وإن ضاقَ الأفقُ،
فافتحوا في الحلمِ نوافذ،
وإن خذلتكم الطرق،
فاصنعوا من خطاكم دروبًا.

يا قومُ...
إنّ القضيّةَ التي تُبعث من الرماد،
أقوى من تلك التي لم تُختبر،
وإنّ الشعوبَ التي تعلّمت من سقوطها،
أشدُّ بأسًا، وأبقى أثرًا.

فلا تحزنوا إن تأخّر النصر،
ولا تيأسوا إن طال الطريق،
فكلُّ خطوةٍ نحو الحق،
هي انتصارٌ صغير،
وكلُّ صبرٍ على الألم،
هو وعدٌ بنصرٍ كبير.

يا قومُ...
لا تجعلوا من الماضي قيدًا،
بل اجعلوه جسرًا،

ولا تجعلوا من الهزيمة نهاية،
بل اجعلوها بداية.

ففي كلِّ سقوطٍ حكمة،
وفي كلِّ جرحٍ درس،
وفي كلِّ دمعةٍ بذرةُ حياة.

هزِلَت قضيّتُكم... نعم،
لكنها لم تمت،
بَلِيَت... نعم،
لكنها لم تُدفن،
ضَمُرَت... نعم،
لكنها لم تختفِ.

هي هنا...
في الحنين،
في الحكايات،
في نبضِ القلوب.

فأحيُوها...
بالصدق،
بالوحدة،
بالإرادة.

يا قومُ...
إنّ الطريقَ أمامكم،
وإن بدا وعِرًا،
هو الطريقُ الوحيد.

فامضوا...
ولا تلتفتوا إلى الوراء كثيرًا،
ففي الأمام حياة،
وفي الأمام أمل،
وفي الأمام... أنتم كما يجب أن تكونوا.

حزِّموا...
ولكن هذه المرّة،
حزِّموا الحلم،
واحملوا الوطن في قلوبكم،
فالوطنُ لا يُقاسُ بالأرض فقط،
بل يُقاسُ بمن يحملهُ في روحه.

واذكروا...
أنّ القضيّةَ التي تُحبّ،
لا تُهزَم.

عشَّمتَني بالحَلْق... فخرمتُ أذني للسراب

المرشَّح

يا بدرَ هذا الحيِّ، يا وعدًا يُلوّحُ في المدى،
ألقِ على عبدِك نظرةً، فالنورُ من عينيكَ يحييني،
وابعث إليَّ من صوتِكَ العذبِ نغمةً،
فصوتُكَ في الأسماعِ لحنٌ يُطربُ القلبَ ويُدنيني.

أعطني صوتَكَ،
فإنَّ صوتَكَ عندي أغنيةُ الرجاءِ،
وأنشودةُ البقاءِ،
وبه تُزهرُ أيّامي بعد طولِ عناءِ.

أنا الذي أحفظُ مصالحَكَ كما يحفظُ الوردُ ندى الصباح،
وأصونُ أحلامَكَ كما يصونُ البحرُ سرَّ الملاح،
فلا تنسَني إذا ما أقبلَ الفجرُ بالنجاح،
ولا تدعْ تعبي يضيعُ بين الريحِ والرواح.

لا تجعلْ شقائي هباءً،
ولا إنفاقي غبارًا في الفضاء،
ولا سعيي سرابًا يذوبُ في الصحراءِ إذا جاء المساء.

أنا لكَ بابٌ إن أُغلقَت الأبواب،
وظلٌّ إن أحرقتكَ شمسُ الغياب،
ووعدٌ يجيءُ بالخيرِ إذا تكاثفتْ سحبُ العذاب.

سأزرعُ في الطريقِ مصابيحَ الأمل،
وأجعلُ من التعبِ راحةً،
ومن القحطِ سحابةً،
ومن الانتظارِ فرحةً.

فأعطني صوتَكَ،
فإنَّ صوتَكَ عندي ليس ورقةً تُلقى،

بل زهرةٌ تُهدى،
ونجمةٌ تُرجى،
وحلمٌ يفتحُ للأيامِ نافذةَ الضياء.

X

الناخب

كم مرَّ هذا اللحنُ على سمعي،
فداعبَ أذني، ثم مضى كنسيمِ المساءِ،
وكم سمعتُ الوعدَ يُولدُ على الشفاه،
ثم يموتُ قبل أن يبلغَ سماءَ الوفاءِ.

يا صاحبي،
ما أكثرَ الألحانَ إذا اقتربَ الموعد،
وما أقلَّ الأفعالَ إذا انفضَّ الموعد.

تأتي الكلماتُ مزدانةً كالورد،
ثم ترحلُ ذابلةً كالأوراقِ في الخريف،
ويصبحُ الوعدُ قمرًا بعيدًا،
تراه العيونُ ولا تبلغه الكفوف.

تنسى عهودَكَ،
وتنسى وعودَكَ،
وتنسى الوجوهَ التي صفَّقت،
والأيدي التي رفعت،
والقلوبَ التي انتظرت،
ثم تمضي كأنَّ شيئًا لم يكن.

تذكرُ الطريقَ إليهم قبل الفوز،
وتنساه بعد الفوز،
فيا للعجبِ من قربٍ يصيرُ بعده البعد،
ومن دفءِ اللقاءِ الذي يعقبه البرد.

كنتَ قبل الكرسيِّ قريبًا،
فصرتَ بعد الكرسيِّ غريبًا،

وكان صوتُكَ يسبقُ خُطاك،
فصار صمتُكَ يسبقُ جوابَكَ.

كم مرةً صدَّقنا الكلامَ الجميل،
فأورقَ في القلبِ الرجاء،
ثم جاء الواقعُ عاريًا من الحلم،
فذبلتْ أغصانُ الرجاءِ في الفناء.

لقد أصبحَ المثلُ شاهدًا عليك،
والأيامُ تحفظُ ما نسيت،
والناسُ تروي ما مضى وما أتيت.

وصدقَ القائلُ حين قال:

"عشَّمتَني بالحَلْق، فخرمتُ أذني للسراب".

أغريتني ببريقِ الذهب،
فلم أحصدْ سوى لمعانِ الوهم،
ورسمتَ لي قصرًا من الأمنيات،
فاستيقظتُ على جدارٍ من الغيم.

أريتني النهرَ يجري لبنًا وعسلًا،
فإذا بالأرضِ عطشى،
وإذا بالأمنياتِ سفنًا من ورق،
تغرقُ عند أول موجةٍ من الحقيقة.

يا صاحبَ الوعودِ الموشّاةِ بالكلام،
إنَّ القلوبَ لا تعيشُ على الأصداءِ،
ولا ترتوي من سرابِ الرجاءِ،
فالزرعُ يريدُ مطرًا،
والليلُ يريدُ قمرًا،
والناسُ تريدُ فعلًا يسبقُ القول،
لا قولًا يسبقُ الأفول.

فإن وعدتَ فأوفِ،
وإن قلتَ فاصدق،

فما أجملَ الوعدَ إذا صدق،
وما أقسى الوعدَ إذا احترق.

فالناسُ تحفظُ من يداوي جرحَها،
وتنسى من يبيعُها الحلمَ في ثوبِ الكلام،
وما بين الصدقِ والزيفِ،
وما بين النورِ والخداعِ،
وما بين القربِ والجفاءِ،
تظلُّ الحقيقةُ وحدها
أجملَ الأصوات،
وأبقى الذكريات.

مقبرة الأسرار
قصيدةٌ في حبٍّ يوقظُ الحرب، وفي حربٍ تتجمّلُ بالحبّ

دخلتِ، ولم تدخلي كنساءِ الأرض،
بل دخلتِ كأنَّ العينينِ بابانِ إلى صاعقةٍ تتأنّق،
وكأنَّ القلبَ غرفةٌ صغيرةٌ،
فاجأتْها الريحُ بضحكةٍ،
ثم سرقتْ منها المفتاحَ والنبضَ معًا.

دخلتِ من مُقلتيَّ،
فاستوليتِ على النبعِ قبل أن أقول: هذا مائي،
وأخذتِ من دمعي حقَّه،
فلم تتركي لعيوني سوى وعدٍ مبلّلٍ
وقطرةٍ تتيمَّمُ بالنسيان.
يا امرأةً تمشي على المعنى كما تمشي الغزالةُ على الفجر،
أأنتِ صاعقةٌ تلبسُ الحرير؟
أم عاشقةٌ تتخفّى في هيئةِ برقٍ
كي لا يفضحَها الصباح؟

كنتُ أظنُّ أنني أعرفُ وجهي،
حتى رأيتُكِ،
فعرفتُ أن الوجهَ لا يعرفُ نفسَهُ
إلا حين تقتربُ منه يدُكِ،
وأنَّ العينَ ليست عينًا
حتى تُفتَحَ على فتنتكِ الأولى.
أنتِ لم تمرّي بي،
بل مرَّتْ بي الدنيا كلُّها،
وأنا على عتبةِ دهشتي،
أرتّبُ فوضايَ،
وأجمعُ من قلبي ما تكسّرَ من أسماء.

أنتِ لا تجترحين المعجزةَ بيدٍ واحدة،
بل تجترحينها مرّتين:
مرّةً حين تبتسمين،
ومرّةً حين تصمتين.
ولو أيقظتِ شمسًا تختبئُ تحتَ هدبكِ،
ولو علّقتِ النهارَ على كتفِ الليل،
فلن يكونَ ذلك أكثرَ من تدليلٍ من القدر
لمن يجهلُ كيف يَخذُلُه الجمالُ الكريم.
غير أنّني، منذ أصبحتُ نهرًا،
دارتِ الدنيا على قلبي كما تدورُ النجمةُ في عتمتها،
وألقتْ بي إلى مصبٍّ لا يشبهني،
فصرتُ أرى في الموجِ وجهي،
وفي الزبدِ سيرةَ روحي،
وفي الماءِ مرآةَ ما لا أقدرُ عليه.

أيتها النحلةُ أم العاشقة؟
أيتها الرائحةُ أم الرنّة؟
أيتها الآتيةُ من طنينٍ مزمنٍ في الأذنين
حتى صار الصمتُ عندي موجةً،
وصار الهدوءُ فخًّا من عسلٍ؟
دخلتِ من جهةِ السمعِ،
فتركتِ في داخلي قسوةً رقيقة،
ورمادًا يتذكّرُ أجنحتَه،
ونخيلاً ينهضُ من نومه
كأنَّ القيظَ اعتذرَ أخيرًا للظلّ.

تركتِ روحي رمادًا، نعم،
لكنَّ الرمادَ عندكِ ليس موتًا،
بل بدايةُ لونٍ جديد،
وخرائطُ ثانيةٌ للهبِ حين يهدأ،
ووشوشةُ قلبٍ يجرّبُ أن يكونَ خفيفًا
بعد أن أثقلتهُ الحروبُ الصغيرةُ والكبائرُ،
بعد أن شدّتْهُ إلى الهاوية

أسماءٌ كثيرةٌ،
ووجوهٌ كثيرةٌ،
وخساراتٌ كثيرةٌ
لم تكن تُعلنُ نفسها إلا ضاحكة.

وحلمنا، أنا وأنتِ،
أن نحلمَ بالماءِ فيروّقَ التراب،
وأن تقولَ الحجارةُ: لعلّها ندى،
وأن يصدّقَ الغبارُ أن له أجنحةً
إن غسلتهُ يداكِ.
كان حلمنا بسيطًا كخبز الصباح،
لكنّه رشيقٌ كغيمةٍ تعرفُ طريقها،
وكان يكفيه أن يمرَّ بخاطركِ
حتى يزهرَ في الجهات كلها.
كنتِ تجعلين المستحيلَ أقلَّ تكبّرًا،
وتجعلين الممكنَ أكثر حياءً،
وتُضحكينَ المسافةَ حتى تقترب،
وتُصالحينَ بين الرملِ والماءِ
كأنّكِ خُلقتِ لتكتبي على الأرض
مصالحةً بلاغيةً بين العطشِ والارتواء.

لن تميتيني كما شاءَ الأسى،
ولو نشرتِني في كتابٍ منسوجٍ من الحنين،
ولو رممتِ كسري بصفحاتٍ من ضوء،
ولو قلتِ لي: كنْ كما شئتَ،
فأنا أعرفُ أنَّ في موتِ الأشياءِ حياةً أخرى،
وفي احتراقِ الوردةِ عطرًا أعمق،
وفي انكسارِ الكأسِ رنّةً لا يسمعها إلا القلب.
غير أنّي، منذ أصبحتُ صحراء،
نزعتِ الشمسَ عني من شدّةِ ما أرهقتُها،
وجعلتِ الماءَ في الرملِ غنيًّا،
حتى خُيّلَ للعابرين أن السرابَ حقيقةٌ،
وأنّ الظمأَ صارَ يعرفُ اسمي.

فأغرقي مني سرابًا باليدين،
ولا تخافي؛
فالسرابُ لا يغرقُ إلا في يقينِ العاشق،
والعطشُ لا يهلكُ إلا إذا طالَ به الانتظار.
اغمسي كفَّكِ في خوفي،
وأخرجيه مثلَ خرزةٍ زرقاءَ من عينِ العدم،
ثم اتركيه يلمعُ
كي لا أضلَّ الطريقَ إلى نفسي
حين تتشابهُ الجهات.
أنا لا أطلبُ من حبّكِ أن يشفيني،
بل أن يعلّمني
كيف يبتسمُ الجرحُ
من دون أن يُشهرَ سكينَه.

أأنتِ الصاعقةُ التي تُشبهُ العاشقةَ
حين تخلعُ الضفائرَ عن عنقِ الليل؟
أم أنتِ العاشقةُ التي تتنكّرُ في هيئةِ عاصفةٍ
كي لا يراها الخائفون؟
ما الفرقُ بين البرقِ والعينين
إذا كان كلاهما يفتحُ الظلمةَ على مصراعيها؟
وما الفرقُ بين القبلةِ والنار
إذا كانت كلتاهما
تتركُ في الجلدِ ذاكرةً لا تُنسى؟
أنا متروكٌ بين صورتين:
صورةٍ تُحرقني،
وصورةٍ تُحييني؛
وكلتاهما منكِ،
فكيف أهربُ من يدٍ
تسكنُ في دمي قبل أن تمتدَّ إليه؟

هل دمي صاعقةٌ أم عاشقة؟
هل هو نارٌ أم وردٌ على وشكِ الاشتعال؟
هل أنا ماءٌ يركضُ نحوكِ

أم رملٌ يتذكّرُ البحرَ
ولا يصل؟
ثمةَ حربٌ صغيرةٌ،
أو كبيرةٌ،
لا فرق،
تدورُ في داخلي كما تدورُ السّنونوةُ في بيتٍ مُغلق،
وتضربُ أبوابَ صدري
ثم تضحكُ من دموعِ الخشب.
هكذا أمسيتُ،
لا في الحربِ وحدها،
بل في حربٍ تشبهُ الحربَ
وتفوقُها في الخفاء،
حربِ النظرةِ إذا أطالت،
وحربِ اللمسةِ إذا اختصرت،
وحربِ الاسمِ إذا استقرَّ في الفم
وصارَ أثقلَ من النداء.

أنا الآنَ في انتهاكاتِ قلبي،
في خروقِ المعنى،
في الأثرِ الذي يسبقُ السبب،
في النارِ المعلّقةِ بين ضلعٍ وضلع،
كأنَّ صدري خيمةٌ
نَسِيَتْ أين كانتْ السكينةُ.
من يدري؟
قد يسقطُ فنجانُ روحي على ثوبِ صديقي،
فيظنُّه قهوةً انسكبت،
ولا يدري أنَّ في داخلي
موائدَ كاملةً قد احترقت.
هو يسمعُ اعتذاراتي،
ويضحكُ من ارتباكي،
ولا يسمعُ طبولَ الحربِ في رأسي،
ولا يرى الجمرَ الذي يمرّ على وجهي

كأنَّه شمسٌ متعبةٌ
تبحثُ عن نومٍ قصير.
أضحكُ أحيانًا،
وأحيانًا أعبسُ،
لكنَّ الحربَ تشهدُ عليّ
على كلِّ حال،
لأنها تعيشُ فيّ
وتتزينُ بلونِ نبضي.
أضحكُ كي لا أفضحَ الخراب،
وأعبسُ كي لا أُجاملَ الوجع.
ما أثقلَ هذا الكائنَ الذي أسكنه!
ما أبرعَه في التمثيل،
وما أضعفَه أمام بسمةٍ واحدةٍ منكِ.
إنه جسدي العاربُ من موتٍ إلى موت،
يركضُ،
ثم يتعثّرُ في اسمي،
ثم ينهضُ من جديد
كأنَّ الحياةَ تأخذُهُ إلى درسٍ آخر
في فنِّ النجاة.
وأنا أُواري نحلةً محروقةً بالصاعقة،
أُخفيها في رحيقِ الذاكرة،
وأسمّي احتراقَها نجاة،
لأني أعرفُ أنَّ للنحلِ
صبرًا يشبهُ القداسة،
وأنَّ للعسلِ
حزنًا لا يراهُ إلا من ذاق.
أواريها في كفّي
كما يواري المطرُ أسراره في التراب،
وأسأل:
أهذه نحلةٌ أم قصيدةٌ
أخطأَتْ طريقَها إلى الجناحين؟

أهذه عاشقةٌ أم شرارةٌ
أحبّتْ أن تتأنّقَ حتى الفناء؟
أنا لا أجيدُ تفسيرَ هذا الوهج،
لكنّي أجيدهُ ألمًا،
وأجيدهُ انتظارًا،
وأجيدهُ ارتجافًا
حين يقتربُ منكِ معنى واحد
فيُربكُ المعاني كلها.

لو أجاري جسدي العارب من موتٍ إلى موت،
إلى أين؟
إلى أيِّ جهةٍ أهربُ من نفسي
ونفسي تحملُ مفاتيحي كلَّها؟
ربما ينفعُ النبعُ إلى وجهي،
ربما يكفي أن أضعَ خدي على ماءٍ قديم
حتى أتذكّرَ من أين جاءَ هذا الشحوبُ،
وربما تنتشرُ الصحراءُ في رأسه
فيغدو الفكرُ كثيبًا،
وتغدو الذكرى قافلةً
تبحثُ عن ناقةٍ من المعنى.
وربما يختلطُ الأمرُ عليَّ طولَ الريق،
فلا أفرّقُ بين الندى واللعاب،
ولا بين الدعاء والصرخة،
ولا بين حبٍّ يُنقذُني
وحبٍّ يتركُني
على عتبةِ ارتعاشي.

إنني أصغي إلى الداخل،
إلى ذلك الممرّ الضيق
الذي لا يدخله أحدٌ إلا بوجعِه.
أصغي إلى الحربِ التي تمتدّ
من قلبي إلى صدغي،
من دمي إلى حدسي،

من رغبتي إلى خيبتي،
كأنَّني خرائطُ انقسامٍ
رُسمتْ على جلدٍ واحد.
هناك، في الداخل،
صوتان لا يتصالحان:
صوتٌ يقولُ: اقترب،
وصوتٌ يقولُ: احذر،
وصوتٌ ثالثٌ، ساخِرٌ،
يضحكُ من الاثنين
ويقول: كلاكما على حق،
فالحبُّ جميلٌ
لأنه لا يُقيمُ في مكانٍ واحد.

فهل هو حربٌ ولا موت؟
أم موتٌ يلبسُ ثوبَ حرب؟
أم أنّ الاثنينِ جثتانِ
في غرفةٍ واحدة،
واحدةٌ منهما اسمي،
والأخرى اسمي أيضًا؟
أم أنا الحيُّ الذي يتعبُ من حيوته،
ويعبثُ به هذا الاختبارُ العجيب،
فيخفي في مكانٍ منه
جثتين:
جثةَ الصبرِ إذا طال،
وجثةَ الحلمِ إذا خانهُ الصباح؟
أيُّ رومانسيّةٍ هذه التي تضحكُ من خرابها،
وأيُّ بلاغةٍ هذه التي تُنبتُ وردًا
على فمِ الفاجعة؟

يا أنتِ،
يا امرأةَ الصاعقةِ والعسل،
يا عاشقةَ النبضِ وخصمته،
يا من دخلتِ من العينِ

فأقمتِ في القلبِ بلا استئذان،
أنا لم أعد أطلبُ منكِ نجاةً كاملة،
فأنا أعرفُ أنَّ الكمالَ
كلمةٌ تليقُ بالغيومِ ولا تليقُ بنا.
أنا أطلبُ فقط
أن تتركي في عتمتي نافذةً صغيرة،
وأن تعلّمي ظلي كيف يجلسُ
من غير أن يتوجّسَ من ضوئكِ،
وأن تكوني، مرةً واحدة،
أقلَّ برقًا وأكثرَ مساء،
أقلَّ صاعقةً وأكثرَ يدًا
تربتُ على عذابي
وتقول: مرَّ كلُّ هذا،
ولم يبقَ إلا هذا الندى.

فإن كنتِ نارًا،
فكوني نارًا تحنو،
وإن كنتِ ماءً،
فكوني ماءً يعرفُ الطريقَ إلى عطشي،
وإن كنتِ نحلةً،
فلا تبخلي على قلبي بلسعةٍ
توقظهُ من سباتِ الملامة،
وإن كنتِ عاشقةً،
فكوني عاشقةً بقدرِ ما يليقُ بعابرٍ
نسيَ أن يطلبَ الخلاصَ
فتعلّمَ الحبَّ بدلًا منه.
وأنا، ما بين الجمرِ والندى،
سأبقى رهينَ الجثّتين:
جثةٍ في الخارجِ
تتظاهرُ بالتماسك،
وجثةٍ في الداخلِ
تكتبُ على الهواء

اسمَكِ
ثم تمحوهُ
ثم تكتبهُ من جديد
كي لا ينسى
أنّكِ، وحدكِ،
الزلزالُ الذي يعلّمني
كيف أتنفّسُ
بعد انقضاءِ الانفجار.

على ضفاف الشوق
حين لا يشيخ الحبّ ولا ينام

أَتَظُنِّينَ أنَّ القلبَ ينسى،
وأنَّ العمرَ يمضي كما تمضي الغيومُ الخفيفةُ في سماءِ المساءِ؟
أَتَظُنِّينَ أنَّ البعدَ يُطفئُ ناراً أشعلتِها أنتِ في أعماقِ الروح،
وأنَّ النوى يمحو ملامحَ الحنينِ من دفاترِ الأيام؟
كيفَ أَسلو،
وأنتِ البدايةُ إذا ابتدأ الفرح،
وأنتِ النهايةُ إذا انتهى الكلام؟
كيفَ أُغلقُ بابَ القلبِ،
وأنتِ المفتاحُ والبابُ والدارُ والسلام؟
أتعلمينَ يا أنتِ،
يا أجملَ صدفةٍ عبرتْ سماءَ أيامي،
أنكِ الهواءُ الذي أتنفَّسهُ حين تضيقُ الدنيا،
والماءُ الذي ترتوي به صحراءُ روحي حين يجفُّ الرجاء؟
أنتِ نبضي إذا هدأ العالم،
وصوتي إذا اختنقت الكلمات،
ونوري إذا تاهت خطايَ في دروبِ المساء الطويل.
فدعيني، يا سيِّدةَ الحسنِ والدلال،
أُرمِّمُ ما كسرَهُ الغياب،
وأزرعُ في حدائقِ الحزنِ أغنيةً جديدة،
فالروحُ التي عرفت الحبَّ مرةً،
لا تُجيدُ إلا الغناء.
أنا غارقٌ في بحرٍ من الصمت،
تأكلُ أمواجُهُ ضفافَ أيامي،
ويعبرُ اليأسُ أحياناً كشتاءٍ طويلٍ فوق نوافذِ القلب.

لكنني، رغم التعب،
ما انحنيتُ لريحٍ،
ولا بعتُ كرامتي لسحابةِ شوقٍ عابرة.
أنا كالمطرِ إذا صفا،
أمنحُ دون حساب،
وأنا كالسيفِ إذا جُرِحَ الكبرياء،
ألمعُ ولا أنكسر،
وأتألّقُ ولا أندثر.
فلا تظنّي أنَّ الحبَّ ضعفٌ،
فالحبُّ الذي يهدمُ الكرامةَ ليس حباً،
والقلبُ الذي يفقدُ احترامَهُ في الطريق،
يصلُ متأخراً إلى الفرح.
نعم، أحببتُكِ،
وما زلتُ أحبُّ فيكِ أشياءَ كثيرة؛
ضحكتكِ حين تُشبهُ المطر،
وصمتكِ حين يُشبهُ صلاةَ المساءِ،
وعينيكِ حين تتسعانِ لوطنٍ من الأحلام.
لكنني لا أُطيقُ جفاءً يلبسُ ثوبَ الدلال،
ولا هجرًا يتزيَّنُ باسمِ العتاب،
فبين الحبِّ والكبرياءِ خيطٌ من نور،
إذا انقطعَ،
أظلمتِ المسافات.
لا أُنكرُ أنَّ الشوقَ يسكنني،
وأنَّ الحنينَ يعرفُ عنواني جيداً،
وأنَّ الليلَ كثيراً ما يفاجئني
وأنا أُحادثُ صورتكِ في المرايا.
أمشي بين الناسِ باسماً،
وفي داخلي ألفُ نافذةٍ تبكي بصمت.
أبدو هادئاً،
لكنَّ البحرَ أيضاً يبدو هادئاً
قبل أن تُوقظهُ العواصف.

وكم أشبهُ مزارعاً
زرعَ العمرَ قمحاً من الأماني،
ثم جاءَ الخريفُ مبكراً،
وحصدَ الريحَ بدل السنابل.
أرى الوجوهَ من حولي،
تبتسمُ وتغني وتحتفل،
وأرى في العيونِ حكاياتٍ كثيرة،
لكنَّ قلبي لا يرى إلا وجهكِ،
ولا يحفظُ إلا اسمكِ،
ولا ينادي إلا عليكِ.
كم من الجميلاتِ مررنَ كالفصول،
وكم من العيونِ أرسلتْ رسائلَ الضوء،
لكنَّ بعضَ القلوبِ خُلقتْ لاسمٍ واحد،
وبعضَ الأرواحِ لا تُقيمُ إلا في وطنٍ واحد.
كنتُ أتمنى لو اخترتِ الطريقَ الأجمل،
طريقَ الودِّ لا الصدّ،
وطريقَ القربِ لا البعد،
وطريقَ الصراحةِ لا الصمت.
فالحبُّ لا يعيشُ في الظلال،
ولا يزهرُ في البرد،
ولا يطيرُ بجناحٍ واحد.
الحبُّ شمسٌ أو لا يكون،
ونهرٌ أو لا يكون،
وصوتانِ يلتقيانِ في أغنيةٍ واحدة،
لا صدىً وحيداً يضيعُ في الجبال.
كنتُ أتمنى
أن نمشي معاً في الطريقِ نفسه،
فنقتسمُ تعبَ المسافة،
ونتبادلُ ظلالَ الأشجار،
ونضحكُ للريحِ إذا عبثتْ بخصلاتِ المساء.

لكنَّ الريحَ اختارتْ اتجاهاً آخر،
واختارتْ السفينةُ شاطئاً آخر،
فبقيَ البحرُ بيننا،
وبقيَ الشوقُ يُلوّحُ من بعيد.
لا تظنّي أنَّ الأنينَ يظهرُ على ملامحي،
فأنا أجيدُ إخفاءَ الألم،
كما تُخفي السماءُ دموعَها داخلَ الغيوم.
أستطيعُ أن أُجمِّدَ الدمعَ في عيني،
وأن أبتسمَ والوجعُ يطرقُ أبوابَ قلبي،
فالرجالُ أحياناً لا يبكونَ أقلَّ،
لكنهم يبكونَ بصمتٍ أكثر.
وإذا استعصى اللقاء،
فسأكتفي بذكرى جميلة،
فالذكرياتُ أحياناً
تكونُ وطناً صغيراً للمنفيّينَ من الحب.
وفي الدنيا وجوهٌ كثيرة،
وقلوبٌ كثيرة،
وأغنياتٌ كثيرة،
لكنَّ القلبَ لا يُقاسُ بالكثرة،
فقد تكونُ وردةٌ واحدة
أجملَ من بستان.
وربما يأتي يومٌ
تلتفتينَ فيه إلى الوراءِ،
فتجدينَ أنَّ بعضَ الراحلينَ
كانوا أكثرَ وفاءً من الحاضرين.
وربما تدركينَ أنَّ المبالغةَ في الجفاء
تجرحُ أكثرَ مما تُريّي،
وأنَّ القلوبَ مهما أحبَّت
فإنها تتعب،
ومهما صبرت
فإنها ترحل.

عندها ستتذكرينَ
كيف كانَ الحبُّ بسيطاً وجميلاً،
وكيف كانتِ الأيامُ خفيفةً كالفراشات،
وكيف كانتِ الضحكاتُ تسبقُ الكلمات.
ستتذكرينَ صباحاتٍ كانت تُشبهُ الياسمين،
ومساءاتٍ كانت تُشبهُ الدعاء،
وأحاديثَ قصيرةً
كانت أطولَ عمراً من السنين.
أما أنا،
فلستُ شامتاً بالمسافات،
ولا فرحاً بانتصارِ الغياب.
فالقلوبُ الكبيرةُ
لا تُجيدُ التشفي،
كما أنَّ الأشجارَ المثمرة
لا ترشقُ العابرينَ بالحجارة.
لقد غادرتُ حباً أرهقهُ الظلم،
واتجهتُ نحو حبٍّ أكثرَ صفاءً،
حبٍّ يشبهُ النورَ إذا أشرق،
ويشبهُ المطرَ إذا نزل،
ويشبهُ الدعاءَ إذا صعدَ إلى السماء.
حبٌّ لا يُذلُّ ولا يُهان،
لا يجرحُ ولا يفضح،
لا يُطفئُ الروحَ بل يُضيئها،
ولا يُثقِلُ القلبَ بل يُحلِّقه.
هو حبٌّ
إذا اقتربَ صارَ سلاماً،
وإذا ابتعدَ صارَ احتراماً،
وإذا انتهى
تركَ خلفهُ ورداً لا رماداً.
ما أجملَ الحبَّ حين يكونُ نقياً،
وما أقسى الهوى حين يتحولُ إلى قيد.

فبينَ الصفاءِ والجفاء،
وبينَ الوفاءِ والرياءِ،
وبينَ القربِ والبعد،
تولدُ الحكاياتُ وتموت.
السجعُ في القلبِ يقول:
قربٌ يُحيي، وبُعدٌ يُفني،
وودٌّ يبقى، وجفاءٌ يفنى.
والطباقُ يهمس:
ليلٌ ونهار،
حضورٌ وغياب،
دفءٌ وصقيع،
ابتسامٌ ودموع.
والجناسُ يغنّي:
بينَ **السَّلامِ** و**الكلامِ**،
وبينَ **الهوى** و**الهوية**،
وبينَ **الروحِ** و**الروحانِيَّة**،
تنمو المعاني كما تنمو الزهورُ على ضفافِ المطر.
ويبقى السؤالُ معلقاً في آخرِ الطريق:
هل ينسى القلبُ حقاً من أحبَّ؟
أم أنَّ بعضَ الأرواحِ خُلقتْ
لتسكنَ بعضها،
ولو فرَّقتْ بينها المدنُ والسنوات؟
ربما يهدأ الشوق،
وربما تنامُ الذكريات،
لكنَّ الحبَّ الصادقَ لا يموت،
إنَّه فقط
يغيّرُ مكانَ إقامته؛
فيغادرُ الشفاه،
ويسكنُ الدعاء.
وهكذا يبقى في القلبِ ركنٌ مضيء،
لا تطفئهُ الرياح،

ولا تمحوهُ المواسم،
ركنٌ يقولُ في هدوء:
لقد مرَّ الحبُّ من هنا،
فصارَ القلبُ أوسعَ من الألم،
وأجملَ من الحكاية،
وأقربَ إلى السماء.
وربَّ قلبٍ نظرَ إلى حواءَ حبّاً،
ثم نظرَ إليها حكمةً،
فعرفَ أنَّ الحبَّ الحقيقيَّ
ليس امتلاكاً... بل ارتقاء،
وليس قيداً... بل فضاء،
وليس نهايةً... بل بدايةٌ أخرى من الضوء والصفاء.

على بابِ قلبِكَ
وقفتُ أستعيرُ ابتسامةً من كرمِ الغيم

أتيتُ بابَكَ...
لا أحملُ سوى قلبٍ تعلَّمَ أن يُحسنَ الظنَّ،
ولو أساءَ إليه الانتظار،
ولا أملكُ إلا أملاً صغيرًا،
لكنَّه عنيدٌ كالعاشق،
جميلٌ كالفجر،
يُولدُ كلَّ صباحٍ، ولو ماتَ ألفَ مساء.
جئتُ أطرقُ بابَكَ،
لا لأنَّ الطرقَ هواية،
بل لأنَّ القلوبَ إذا أحبَّت،
ضاعَ منها الطريقُ إلا إليك.
وأعرفُ...
أنَّ الجودَ عندكَ بحرٌ،
والبحرُ لا يسألُ الموجَ:
لِمَ جئتَ؟
ولا يُعاتبُ النهرَ:
لِمَ تأخَّرتَ؟
بل يفتحُ ذراعيهِ للماء،
كما يفتحُ القلبُ صدرَهُ لمن يعرفُ معنى الوفاءِ.
فإن قلتَ لي: لا...
ابتسمتُ،
فالـ"لا" عند الكرامِ ليست نهايةً،
بل استراحةُ معنى،
وربَّ منعٍ يحملُ في جيبِه عطاءً أكبر،
وربَّ بابٍ أُغلقَ اليوم،
ليفتحَ غدًا نوافذَ من نور.

وإن قلتَ: نعم...
فما أغربَ نعمَكَ!
إنَّها لا تأتي وحدَها،
بل تصطحبُ معها المطر،
والياسمين،
ورائحةَ القهوة،
وضجيجَ العصافير،
وكأنَّ الكرمَ عندكَ لا يعرفُ الاقتصاد،
ولا يُجيدُ العدَّ،
فهو إذا أعطى...
نسيَ أن يتوقَّف.
يا صاحبي...
لقد رأيتُ قومًا إذا ملكوا،
تكبَّروا.
ورأيتُ آخرين إذا أعطوا،
ذكَّروا الناسَ ألفَ مرَّةٍ بما أعطوا.
أمَّا أنت،
فتمنحُ الجميلَ،
ثمَّ تمضي كأنَّ الأمرَ لا يعنيكَ،
وكأنَّ الخيرَ عندكَ عادة،
لا بطولة.
ولأنَّ الدنيا مسرحٌ ساخر،
فقد رأيتُ البخيلَ يتحدَّثُ عن الكرمِ ساعات،
حتى كدتُ أصدِّقه،
ثمَّ مددتُ إليه يدي...
فخبَّأ يدَيْهِ في جيبِه،
وكأنَّ أصابعَهُ إرثٌ تاريخيٌّ لا يجوزُ الاقترابُ منه!
ورأيتُ آخرَ،
يكتبُ عن الإنسانيةِ كلَّ صباح،
ثمَّ يغلقُ قلبَهُ مع أوَّلِ محتاج.
سبحانَ مَن جمعَ بين كثرةِ الكلام،

وقلَّةِ السلام،
وبين ضجيجِ الشعارات،
وصمتِ المواقف.
أمَّا الكريمُ،
فلا يحتاجُ إلى إعلان،
فالوردُ لا يكتبُ على أوراقِه:
"أنا جميل".
والشمسُ لا تُعلِّقُ لوحةً تقول:
"أنا الضوء".
والغيمُ لا يطلبُ تصفيقًا،
كلُّ ما يفعلُه...
أنَّه يمطر.
ولذلك...
لا يستوي الناسُ،
ولا تتشابهُ القلوبُ،
فبين قلبٍ يزرعُ الوردَ،
وقلبٍ يزرعُ الشوك،
مسافةٌ لا تقيسُها الخرائط.
وبين يدٍ تمتدُّ بالعطاء،
ويدٍ تنكمشُ بالبخل،
فرقٌ يشبهُ الفرقَ
بين الفجرِ والظلام،
وبين النسيمِ والسموم،
وبين الضحكةِ والأنين.
عجيبٌ أمرُ البشر!
بعضُهم إذا امتلكَ رغيفًا،
حسبَ نفسَهُ سلطانًا على المائدة،
وبعضُهم يملكُ البساتين،
ويعتذرُ لأنَّ الثمارَ لم تكفِ الجميع.
وهناكَ من يبخلُ حتى بالابتسامة،
كأنَّها تُخصمُ من رصيدِه،

ويُوزِّعُ العبوسَ مجَّانًا،
فهو تاجرٌ بارعٌ في تصديرِ الكآبة،
واستيرادِ الأعذار.
أضحكُ أحيانًا...
حين أرى أحدَهم يُحاضرُ في الأخلاق،
ثمَّ يتعثَّرُ بها عند أوَّلِ امتحان.
يتكلَّمُ عن الوفاءِ،
ويهربُ عند الحاجة.
ويتغنَّى بالمحبَّة،
ثمَّ ينسى عنوانَ أصدقائِه إذا ضاقت بهم الحياة.
ما أوسعَ الكلام!
وما أضيقَ التطبيق!
فالقولُ سهل،
أمَّا الفعلُ،
فهو القصيدةُ التي لا يُتقنُ إنشادَها إلا النبلاء.
وأنتَ...
كنتَ دائمًا القصيدة،
لا العنوان.
والنهر،
لا الضفَّة.
والفعل،
لا الضجيج.
إذا حضرتَ،
حضرتِ الطمأنينة.
وإذا ابتسمتَ،
ابتسمَ النهار.
وإذا أعطيتَ،
تسابقَ الشكرُ والدعاء،
أيُّهما يصلُ إليكَ أوَّلًا.
علَّمتَني أنَّ الكرمَ ليس مالًا فقط،
بل كلمةٌ تُداوي،

ونظرةٌ تُطمئن،
ووقتٌ تمنحُهُ لمن يحبُّك،
ودعاءٌ خفيٌّ لا يسمعُهُ إلا الله.
فما أجملَ الإنسانَ
حين يكونُ كبيرًا بقلبِه،
لا بجيبِه،
غنيًّا بروحِه،
لا برصيدِه،
مضيئًا بأخلاقِه،
لا بأضواءِ الشهرة.
أتيتُ بابَكَ...
وما زلتُ أحملُ أملي،
لكنَّه اليومَ صارَ أكبر،
لأنَّني تعلَّمتُ أنَّ الكريمَ إذا تأخَّر،
لا ينسى.
وإذا وعد،
وفى.
وإذا أعطى،
أغنى.
فإن منعتَ،
قلتُ: لعلَّ في المنعِ رحمةً لا أراها،
وفي التأخيرِ حكمةً لا أفهمُها بعد.
وإن أعطيتَ،
قلتُ: هذا هو الفضلُ الذي يُشبهُ المطر،
لا يختارُ أرضًا دون أرض،
بل يُحيي القلوبَ قبل الحقول.
فدمتَ كما عرفتُك...
قريبًا وإن باعدتْنا المسافات،
جميلًا وإن شاختِ الأيام،
كريمًا إذا ضاقتِ الدنيا،
وبحرًا إذا جفَّتْ بحارُ الناس.

سلامٌ على قلبٍ إذا أحبَّ أخلص،
وإذا وعدَ أنجز،
وإذا أعطى أدهش،
وإذا صمتَ...
قالتْ أخلاقُهُ كلَّ الكلام.

حينَ يجورُ الزمانُ... يبقى النورُ في القلوب

إذا جارَ الزمانُ على الناسِ،
تكسَّرت أشياءُ كثيرةٌ في الداخل قبل الخارج،
واهتزَّت الموازينُ حتى صارَ الصادقُ غريباً،
وصارَ صاحبُ المصلحةِ يُزيّنُ نفسَه بثوبِ الشرفِ والوقار.
في زمنٍ تختلطُ فيهِ الأصوات،
يعلو الضجيجُ ويخفتُ صوتُ الحقيقة،
ويغدو القلبُ النقيُّ كطائرٍ صغيرٍ
يبحثُ عن غصنِ أمانٍ في ريحٍ لا تهدأ.
كم هو موجعٌ أن ترى الوجوهَ تَتبدّل،
والقلوبَ التي كانت مأوىً للمحبّة
تصيرُ باردةً كشتاءِ المدنِ البعيدة.
صديقُ الأمسِ الذي كان يزرعُ الطمأنينةَ في الروح،
قد يصبحُ اليومَ عابراً لا يعرفُ ملامحَ الوفاءِ.
فالنفوسُ حين تُرهقها المصالح،
تذبلُ فيها الورود،
ويجفُّ نهرُ الرحمةِ في العيون.
لكنَّ الحياةَ، مهما اشتدَّ قسوتُها،
لا تخلو من نافذةِ نور،
ولا تنطفئُ فيها شمعةُ الخيرِ تماماً.
فكما يتعاقبُ الليلُ والفجر،
يتعاقبُ الحزنُ والرجاء،
وكما يذبلُ الغصنُ في الخريف،
يعودُ في الربيعِ أكثرَ اخضراراً وبهاء.
إنَّ الدنيا، مهما اتَّسعت،
تبقى قصيرةً كحلمٍ عابر،
فلا تحزنْ إن رأيتَ أهلَ الطمعِ يعلون،
ولا تنكسرْ إذا ضاقَ طريقُ الفضيلة.

فالذهبُ الحقيقيُّ لا يفقدُ قيمتَه
ولو غطّاهُ التراب،
والقلبُ الطاهرُ يبقى جميلاً
ولو أرهقتهُ الخيبات.
كم من إنسانٍ نامَ على وسادةِ المجد،
ثم استيقظَ على هشاشةِ الدنيا وتقلباتها،
وكم من بسيطٍ مجهول
رفعَهُ اللهُ بنقاءِ قلبهِ وصفاءِ سريرته.
فالأيامُ لا تثبتُ على حال،
والدهرُ يدورُ كعجلةِ الريح،
مرةً يمنحُ الورد،
ومرةً يبعثرُ أوراقهُ في الطرقات.
لا تُرهقْ روحكَ بمطاردةِ السراب،
ولا تجعلْ الأطماعَ قيداً حولَ قلبك.
فما خُلقتِ الروحُ لتتنافسَ على الفاني،
بل خُلقتْ لتسمو،
ولتتركَ أثراً جميلاً يشبهُ العطرَ بعد الرحيل.
ما أجملَ الإنسانَ حين يكونُ نقيَّ القلب،
هادئَ الروح،
لا يؤذي أحداً،
ولا يحملُ في صدرهِ إلا السلام.
فالنقاءُ لغةٌ لا يفهمها الجميع،
لكنَّها تصلُ دائماً إلى القلوبِ الصادقة،
كما يصلُ ضوءُ القمرِ إلى البحر
في ليالٍ يغمرُها السكون.
وفي زحمةِ هذا العالم،
ابقَ قريباً من نفسك،
قريباً من الله،
فالإيمانُ هو اليدُ التي تُمسكُ قلبكَ
حين تتساقطُ الأشياءُ من حولك.

هو السكينةُ التي لا تُشترى،
والنورُ الذي لا تطفئهُ عواصفُ الحياة.
فلا تأسفْ على دنيا
تساوى فيها الخيرُ والشرُّ في أعينِ البعض،
ولا تنحنِ لعابرِ غرورٍ ظنَّ أن المجدَ يُشترى.
فالعزُّ الحقيقيُّ ليسَ مالاً ولا منصباً،
بل قلبٌ مطمئن،
وروحٌ تعرفُ طريقَ الحقِّ ولو طالَ السفر.
كنْ كالنخلةِ،
ترتفعُ بصمتٍ،
وتمنحُ الخيرَ حتى لمن يرشقُها بالحجارة.
وكنْ كالمطر،
يمرُّ خفيفاً على القلوبِ العطشى
فيتركُ فيها حياةً جديدة.
ولا تسمحْ لقسوةِ العالم
أن تُطفئَ الطفلَ الجميلَ في داخلك.
إنَّ بعضَ الخيباتِ
ليستْ نهايةَ الطريق،
بل بدايةُ الحكمة.
وبعضَ الدموعِ
ليستْ ضعفاً،
بل غسيلٌ للقلبِ من تعبِ الأيام.
فاصبرْ إذا ضاقتْ بكَ الحياة،
فبعدَ العسرِ يُولدُ اليسر،
وبعدَ الليلِ الطويل
يأتي فجرٌ يحملُ في يديه
أغنياتِ الضوء.
يا صاحبَ القلبِ الطيب،
إن ضاقتْ بكَ الدنيا يوماً،
فتذكّرْ أن الورودَ
لا تنمو إلا بعد المطر،

وأنَّ النجومَ
لا تُرى إلا في الظلام.
فتمسَّكْ بالخير،
ولو قلَّ أهله،
وتمسَّكْ بالنور،
ولو ازدحمَ العالمُ بالعتمة.
لأنَّ الإنسانَ لا يُقاسُ بما يملك،
بل بما يمنح،
ولا بما يقول،
بل بما يزرعُهُ من أثرٍ جميلٍ في القلوب.
وما يبقى في النهاية
ليسَ ضجيجَ الحياة،
بل تلك اللحظاتُ الصادقة
التي مررنا بها كنسمةِ حب،
وتركناها خلفنا
كأغنيةٍ لا تموت.

نشيدُ الوطنِ بينَ يديْ مَلِكٍ عادل

يا لروعةِ الوطنِ حينَ يُظلِّلُهُ قلبٌ يعرفُ معنى الرحمة،
وحينَ يجلسُ على عرشِه رجلٌ لا يرى في التاجِ زينةً من ذهب،

بل أمانةً من تعبٍ وسهر، ومسؤوليةً تُضيءُ الليالي وتُطفئُ خوفَ الرعيّة.
فليسَ كلُّ مُتوَّجٍ يَحمي البلاد،
ولا كلُّ من حملَ الصولجانَ عرفَ طريقَ الرشاد.
فكم من مَلِكٍ نامتْ عيناهُ قريرة، بينما الوطنُ يسهرُ في وجعِه،
وكم من حاكمٍ أرهقتهُ همومُ الناس، فصارَ الليلُ في عينيه طويلاً،
كأنّ النجومَ تُعاتبه إن غفا،
وكأنّ أنينَ الفقراء يوقظه كلّما حاولَ أن يستريح.
ذلك هو الملكُ الذي تُحِبُّه القلوبُ قبلَ أن تُهابه،
وتأنسُ إليه الأرواحُ قبلَ أن تنحني له الرؤوس.
ملكٌ إذا ضاقتِ الدنيا على شعبه، اتّسعَ صدرُه لهم،
وإذا أظلمتِ الطرقاتُ، كان لهم قمراً ودليلاً.
لا يتركُ الرعيّةَ نهباً للفوضى،
ولا يُسلِمُ البلادَ لريحِ الفساد،
بل يمضي بينَ الناسِ كالأبِ الحنون،
يسألُ عن الضعيف، ويُداوي انكسارَ المقهور،
ويزرعُ في الأرضِ أمناً يشبهُ المطرَ حينَ يلامسُ القلوبَ العطشى.
ما أجملَ الحاكمَ حينَ يكونُ قريباً من شعبه،
يسمعُ نبضَهم، ويعرفُ أوجاعَهم،
حتى ليغدو في وجدانِهم سمعاً وفؤاداً،
وتغدو البلادُ باسمه أكثرَ دفئاً وطمأنينة.
فالحكمُ ليس قصوراً عالية،
ولا مواكبَ تُصفّقُ لها الشوارع،
بل قلبٌ كبيرٌ يتّسعُ لوطنٍ كامل،
وعزمٌ لا ينكسرُ أمامَ العواصف.
أمّا الحاكمُ الغافل،
فهو ليلٌ ثقيلٌ على البلاد،
يتركُ الناسَ في متاهاتِ الخوف،
ويجلسُ فوقَ عرشِه كأنّ المُلكَ حلمٌ شخصيٌّ لا علاقةَ لهُ بدموعِ البشر.
ترتجفُ الرعيّةُ من حوله،
وتصيرُ المدنُ كأرملةٍ ترتدي السواد،
فلا أمنٌ يُطمئنُ القلوب،

ولا عدلٌ يُنصفُ المظلومين.
وحينَ يغيبُ العزمُ عن الحاكم،
تضيعُ البلادُ بينَ أيدي العابثين،
ويصبحُ الوطنُ كسفينةٍ أنهكَها الموجُ ولم تجدْ ربّاناً يقودها.
فالملكُ الحقُّ لا يقومُ إلا بالحكمة،
ولا يثبتُ إلا بالحزمِ والعدل.
بالحزمِ الذي تنكسرُ عنده الفتن،
وبالعدلِ الذي يُحيي القلوبَ كما يُحيي المطرُ الأرضَ اليابسة.
يا عزيزَ النيل،
يا من تنظرُ إليكَ الآمالُ حائرةً،
وتسألُكَ البلادُ أن تُضيءَ لها الطريق،
إنَّ الوطنَ حينَ يتعبُ، يبحثُ عن يدٍ تُمسكُه برفق،
وعن قائدٍ يُعيدُ للأحلامِ أجنحتها.
انظرْ إلى البلادِ كيفَ أثقلتها الخطوب،
وكيفَ مزّقَ الشقاقُ أبناءَها،
فصارَ الأخُ يبتعدُ عن أخيه،
وصارَ الحزنُ يتسرّبُ إلى البيوتِ كالدخان.
القلوبُ متعبة،
والأرواحُ تُنادي من يُعيدُ للوطنِ وجهَه الجميل.
فلا تتركْ شعبكَ لرياحِ الفتن،
ولا تُسلِمْهم لنارِ الخوفِ والضياع،
فالأوطانُ حينَ تُهمَلُ تتكسّرُ من الداخل،
وحينَ يغيبُ عنها العدلُ،
تذبلُ كحديقةٍ هجرها الماء.
قُدْ بلادكَ بحكمةِ من يعرفُ قيمةَ الإنسان،
واجعلْ من العدلِ باباً لا يُغلَق،
ومن الرحمةِ لغةً بينكَ وبينَ الرعيّة.
ابنِ للوطنِ حصناً من الأخلاق،
فالأممُ لا تعلو بالقوّة وحدها،
بل ترتفعُ حينَ تسمو أخلاقُها،
وحينَ يصبحُ الخيرُ عادةً في النفوس،

والصدقُ ضياءً في الوجوه.
عوّدْ الناسَ المحبّة،
فالقلبُ يألفُ ما يُسقى به؛
إن سُقيَ خيراً أثمرَ سلاماً،
وإن سُقيَ شراً أورثَ خراباً.
وللأخلاقِ عدوى جميلة،
تمشي بينَ الناسِ كنسيمِ الفجر،
فإذا صلحَ القائدُ، صلحتْ وجوهٌ كثيرة،
وإذا استقامَ الراعي،
مالتِ الرعيّةُ إلى الاستقامةِ كما تميلُ السنابلُ نحوَ الشمس.
إنّ الوطنَ لا يحتاجُ إلى الخطبِ وحدها،
بل إلى يدٍ تبني،
وقلبٍ يُنصف،
وعقلٍ يرى المستقبلَ بعينِ الحكمة.
فالبلادُ التي يحكمُها العدلُ،
تنامُ مطمئنّةً كطفلٍ في حضنِ أمّه،
والأرضُ التي يسكنُها الأمانُ،
تزهرُ فيها الأحلامُ كما تُزهرُ الحدائقُ بعد المطر.
وما أجملَ أن يرى الشعبُ حاكمَه بينهم،
يسيرُ في دروبِهم،
ويحملُ همومَهم كأنّها همومُه،
فيشعرُ الفقيرُ أنّ لهُ سنداً،
ويشعرُ المظلومُ أنّ العدالةَ قريبة،
ويشعرُ الوطنُ كلُّه أنّهُ حيٌّ نابضٌ بالمحبّة.
فيا من بيدِه أمرُ البلاد،
اجعلْ من الوطنِ قصيدةَ نور،
ومن الشعبِ أسرةً واحدة،
ولا تدعِ الفرقةَ تزرعُ أشواكَها بينَ القلوب.
فما أجملَ الاتّحادَ حينَ يجمعُ الناسَ على الخير،
وما أقسى الشقاقَ حينَ يُحوّلُ الوطنَ إلى جراحٍ مفتوحة.
إنّ الأممَ تمضي بالأمل،

وتنهضُ بالإرادة،
وتبقى بالأخلاق.
وكلُّ وطنٍ لا يحرسُه العدلُ،
تأكلهُ الفتنُ من أطرافه،
أمّا الوطنُ الذي يسكنُه الحبُّ،
فتحرسُه دعواتُ البسطاءِ،
وتظلّهُ رحمةُ السماء.
فامضِ بالبلادِ إلى فجرٍ جديد،
تعودُ فيه الضحكاتُ إلى الوجوه،
ويعودُ النيلُ أغنيةً زرقاءَ في عيونِ أبنائه،
ويعودُ الوطنُ بيتاً دافئاً لا يخافُ ساكنوه.
هناك فقط،
يصبحُ الملكُ تاجاً من نور،
ويصبحُ الشعبُ جناحينِ لوطنٍ واحد،
وتصبحُ الحياةُ قصيدةً كبيرة،
يعزفُها الحبُّ،
ويُتمُّها العدلُ،

أحبك بلا حدود

أحبُّكِ... ولا أعرفُ أين تنتهي الجهات
أحبُّكِ...
ولا أدري إلى أيِّ سماواتٍ تمضي بي هذه المحبّة،
فقلبي حين يراكِ
يصيرُ عاصفةً من ضوء،

وتصبحُ روحي نهرًا هائجًا
لا يعرفُ الضفاف.
أنا رجلٌ
تسكنُهُ الفوضى الجميلة،
وتتبعثرُ في داخلهِ الفصول،
مرةً أكونُ مطرًا حنونًا
ومرةً ريحًا لا تهدأ،
لكنّي - رغم كلِّ هذا الاضطراب -
أحبُّكِ بصدقٍ يشبهُ صلاةَ العاشقين.
أعرفُ أنّني مُتعب،
وأنّ قلبي طفلٌ
كلّما لامستهُ يدُ الحنان
ركضَ إليها كفراشةٍ ضلَّت طريقها طويلًا،
وأعرفُ أنّني لا أُجيدُ الاعتدال،
فأنا إذا أحببتُ
أحرقتُ المسافات،
وكسرتُ حدودَ الوقت،
وأنفقتُ عمري كلَّه
في نظرةٍ واحدة.
أحبُّكِ بأعصابي المرتجفة،
وبصوتي حين يختنقُ الشوقُ فيه،
أحبُّكِ بعينيَّ
حين تتسعان دهشةً كلّما مرَّ اسمُكِ،
أحبُّكِ بكاملِ اندفاعي،
فلا العقلُ يردعني،
ولا الحكمةُ تُطفئ هذا الجنون الجميل.
الحبُّ عندي
ليس كلمةً تُقال،
بل وطنٌ من نارٍ وعطر،
مدينةٌ تُضاءُ بالنبض،

وتنمو في شوارعها
أشجارُ الحنين.
هو أن أرسمَ معكِ عمرًا جديدًا،
ونوافذَ تطلُّ على الفرح،
وأن أبني من أحلامنا
سماءً أخرى
لا يغيبُ عنها القمر.
أحبُّكِ
حتى أشعرُ أنّ الزمنَ يتكسّرُ بين يدي،
وأنّ الثواني تفقدُ معناها
حين أراكِ،
فدقيقةٌ قربكِ
تساوي عمرًا من الطمأنينة،
وعمرٌ بعيدٌ عنكِ
ليس سوى صحراءَ باردة.
فلتقبليني كما أنا...
رجلًا يحملُ قلبهُ على كتفيه،
ويمشي به بين الناس
كمن يحملُ وردةً خائفةً من الذبول،
مغامرًا
يُؤمنُ بالأحلام أكثرَ من الواقع،
ويُصادقُ الليلَ
لأنّ القمرَ يذكّرهُ بعينيكِ.
أحبُّ فيكِ ذلك الربيعَ الخجول،
وذلك النورَ الساكنَ في ملامحكِ،
أحبُّ ضحكتكِ
حين تتناثرُ كخريرِ ماءٍ صافٍ،
وأحبُّ حديثكِ
حين يمرُّ على قلبي
كأنّهُ موسيقى ناعمة
تُهدّئ تعبَ العالم.

في حضورِكِ
تصبحُ الأشياءُ أكثرَ جمالًا؛
القهوةُ ألذّ،
والمساءُ أكثرَ دفئًا،
والأغاني أكثرَ صدقًا،
حتى الشوارعُ الحزينة
تبتسمُ حين تعبرين.
أنتِ العطرُ الذي يسكنُ وردته،
وأنتِ السرُّ الذي يمنحُ للحياةِ معناها،
فأنا قبلَكِ
كنتُ ظلًّا باهتًا
يمشي بلا ملامح،
وكانت أيّامي
تشبهُ أوراقًا جافةً
تبعثرها الريح.
لكنّكِ حين جئتِ،
أزهرتْ الجهات،
واخضرّتْ روحي بعد يَباس،
وشعرتُ أنّ قلبي
كان ينتظرُكِ منذ زمنٍ بعيد،
كأنّكِ الوعدُ الذي تأخّر كثيرًا
ثم جاءَ دفعةً واحدة
ليعوّضَ كلَّ الغياب.
أحبُّكِ...
حبًّا لا يُقاسُ بالكلمات،
ولا تحتويهِ الرسائل،
حبًّا كلّما حاولتُ وصفهُ
اتّسعتْ حيرتي،
فأنتِ أكبرُ من اللغة،
وأجملُ من كلِّ التشبيهات.

وحين أسألُ نفسي:
كيف استطاعت امرأةٌ واحدة
أن تُغيّر هذا العالم داخلي؟
أبتسم...
وأدركُ أنّ بعضَ الأرواح
خُلقتْ لتكونَ قدرًا،
وأنتِ قدري الجميل.
فإن مرَّ يومٌ
وشعرتِ فيه بالوحدة،
تذكّري أنّ هناك قلبًا
يُضيءُ باسمكِ،
وأنّ رجلًا
كلّما ضاقت به الحياة
أغلقَ عينيه
وراكِ.
أحبُّكِ
كما يحبُّ البحرُ مطره،
وكما تُحبُّ السماءُ نجومها،
وكما يُحبُّ الليلُ آخرَ قنديلٍ فيه،
حبًّا هادئًا حينًا،
ومجنونًا أحيانًا،
لكنّهُ صادقٌ دائمًا
كخفقان القلب.
وما عدتُ أسألُ:
ماذا كنتُ قبلَكِ؟
لأنّي بعدكِ فقط
عرفتُ نفسي،
وعرفتُ أنّ الإنسان
قد يعيشُ عمرًا كاملًا
دون أن يبدأ فعلًا...
حتى يُحب.

قُبلةٌ خُلِقَتْ الحياة لنا

قَبِّلني ...
فما خُلِقَ هذا الشوقُ إلا ليهتدي إلى شفتيك ،
وما خُلِقَ هذا القلبُ إلا ليُقيمَ في مملكتك ،
بين نبضةٍ تُناديك، وهمسةٍ تُناجيك .
قَبِّلني ...
فأنا أؤمن أن بعضَ الأرواحِ لا تكتملُ بالكلام ،
وأن بعضَ الحكاياتِ لا يرويها الحبر ،
بل ترويها قبلةٌ هادئة ،
تسافر من القلب إلى القلب ،
ومن الروح إلى الروح .
قُبلتي ...
أنتَ قُبلتي الأولى حين يزهر الصباح ،
وأنتَ قُبلتي الأخيرة حين ينام المساء .

بين أول الضوء وآخر الظلال ،
أجدك وطنًا للحنين ،
وسكنًا للسكينة .
قُبلتي ...
لقد خُلِقتُ لأُقبّلك ،
كما خُلِقَ الندى ليُقبّل الورد ،
وكما خُلِقَ النسيم ليُداعب الغصون ،
وكما خُلِقَ القمر ليُقبّل صفحة البحر
في ليالٍ من فضةٍ وسحر .
قُبلتي ...
وخُلِقتَ أنتَ لتُقبّلني ،
فتذوب المسافات ،
وتسقط الحواجز ،
ويصير البعيد قريبًا ،
والصمتُ حديثًا ،
عذب الألحان ،
والليلُ عيدًا.
قَبّلني،
لأسمعَ موسيقى قلبك من غير وتر ،
وأقرأ قصيدة حبك من غير سطر .
ففي القُبلة لغةٌ لا تُترجمها المعاجم ،
ولا تُحيط بها الكلمات ،
لغةٌ تكتبها الأرواحُ حين تعجز الحروف.
قُبلتي ...
يا حبيبي ...
حين تقتربُ منّي ،
يتراجعُ العالمُ كلُّه إلى الخلف ،
ويبقى وجهُك وحده في المقدمة ،
كأنه الفجرُ حين ينتصر على الليل ،
وكأنّه اليقينُ حين يهزمُ الحيرة.
قَبّلني ...

فأنا لا أريد من الدنيا كنوزها ،
ولا أطلب من العمر إلا حضوره.
يكفيني أن أرى عينيك ،
وأن أستريح بين يديك ،
وأن أسكن في دفءِ قلبك .
قُبلتي ...
لقد خُلِقنا، فيما يبدو ،
من مادةٍ واحدة:
من الحنين إذا اشتعل ،
ومن الشوق إذا اكتمل ،
ومن الحب إذا قال كلمته الأخيرة
ثم بدأ من جديد.
قُبلتي ...
فأنتَ مني، وأنا منك ،
قربٌ بعد بُعد ،
وضياءٌ بعد عتمة ،
وفرحٌ بعد انتظار .
ذلك تضادٌّ جميل ،
يجعل للحب طعمَه ،
وللّقاء بهجتَه ،
وللشوق معناه.
قُبلتي ...

أُحبُّ فيك سجعَ حضورك ؛
فإذا حضرتَ حضر السرور ،
وإذا ابتسمتَ ابتسمت الزهور ،
وإذا اقتربتَ اقترب النور.
قُبلتي ...
وأُحبُّ فيك جناسَ المعنى والمبنى ؛
فأنتَ " روحٌ تُريح " ،
و" أنسٌ يُؤنس الفؤاد "

و " ودٌّ يمدُّ الودَّ " في طرقات القلب.
قُبلتي ...
لأُعلنَ للزمان أن الحبَّ ما زال جميلًا ،
وأن القلبَ ما زال قادرًا على الإزهار ،
وأن الأرواحَ حين تلتقي بصدقٍ ،
تجعل من الأيام جنائنَ لا تذبل.
قُبلتي ...
دعني أعيش في دنيا القُبَل ،
لا دنيا الضجيج والوجل ،
في دنيا تشرق فيها المودة كل صباح ،
وتنام فيها الطمأنينة كل مساء .
دنيا صغيرة في حجم قبلة ،
لكنها واسعة كالسماوات.
قُبلتي ...
في تلك الدنيا ،
لا يكون الكلام كثيرًا ،
ولا الصمتُ ثقيلًا .
تكفي نظرةٌ لتبدأ الحكاية ،
وقبلةٌ لتكتمل الرواية .
قُبلتي ...
فإنني كلما اقتربتَ ،
ازداد قلبي خفةً ،
وازدادت روحي دفئًا ،
وكأن الحبَّ يعيد خلق العالم
في لحظةٍ واحدة.
قُبلتي ...
وأنا لا أريد من هذا العالم
إلا أن أبقى بقربك ،
أجمع من عينيك الضوء ،
ومن صوتك الأمان ،
ومن قلبك الحياة.

قَبِّلني...
فقد خُلِقتُ لأجلك ،
وخُلِقتَ لأجلي ،
حواء و آدم ،
وخُلِقَ الحبُّ بيننا
جسرًا من شوقٍ ووفاء.
قَبِّلني...

ولتكن قُبلتنا وعدًا لا يشيخ ،
ونشيدًا لا يخفت ،
وزهرةً لا تذبل ،
وقمرًا لا يغيب.
قَبِّلني...
فما خُلِقتُ إلا لأُحبَّك ،
وما خُلِقتَ إلا لتُحبَّني ،
وما خُلِقَ هذا القلبُ إلا ليعيش ،
معك ،
في دنيا القُبَل . ❤

في نبضك... أزهار القلب

أُحِبُّكِ حُبّاً لو تسرّبتْ نسماتُهُ إلى القلوبِ،
لارتجفتْ من فرطِ ما يحملُ من شوقٍ ودفءِ ولهفة.
حبٌّ لا يُقاسُ بالأيّام،
ولا تُحيطُ به الكلمات،
كأنّه بحرٌ من نورٍ
كلّما ظننتهُ انتهى، بدأ من جديد.
وأعلمُ أنّني — مهما قلتُ، ومهما كتبتُ — سأظلُّ مقصّراً؛
لأنّكِ في القلبِ مقامٌ لا تُدانيه نجمة، ولا يبلغه وصف.
أنتِ الحكايةُ التي حين تُروى،
يبتسمُ الليلُ وتُصغي النوافذ.
وأنتِ القصيدةُ التي إذا مرّت على الروح،
أيقظتْ فيها حدائقَ من الياسمين.
في حضوركِ يصبحُ الوقتُ أكثرَ رقة،
والهواءُ أكثرَ عذوبة،
وكأنّ العالمَ كلَّهُ يرتّبُ ملامحهُ احتراماً لعينيكِ.
يا امرأةً خُلِقَ الجمالُ ليعتذرَ أمامها،
كيف استطعتِ أن تجمعي هدوءَ المطر،
ودفءَ الشمس،
ورقّةَ الورد،
في قلبٍ واحد؟
كلُّ شيءٍ فيكِ يُشبهُ الأغنياتِ القديمة؛
بسيطٌ... لكنّه يبقى في الذاكرةِ طويلاً.
حين أراكِ، أشعرُ أنّ قلبي يعودُ طفلاً

يركضُ في بساتينِ الفرح،
وأنّ العمرَ مهما أثقلتهُ الطرق،
يستطيعُ أن يبتسمَ من جديد.
فأنتِ لستِ مجرّدَ حبّ،
بل وطنٌ من طمأنينة،
ونافذةٌ تُطلُّ منها الرّوحُ على الحياة.
أحببتُكِ كما يحبُّ العطشانُ المطر،
وكما تعشقُ الأرضُ أوّلَ قطرةٍ في الشتاء،
وكما ينتظرُ المسافرُ نجمةً تهديه في عتمةِ الطريق.
حبّاً إذا ذُكرَ في مجلسٍ،
أزهرَ الصمتُ حوله،
وخشعتْ لهُ القلوب.
وما أعجبَ هذا القلب!
كلّما امتلأ منكِ، شعرَ أنّهُ ما زالَ فارغاً إليكِ.
وكلّما اقتربَ من صوتكِ، ازدادَ شوقاً لسماعه.
كأنّ حبّكِ نهرٌ لا يصلُ إلى نهايتهِ أحد.
أنتِ البدايةُ حين يتعبُ العالم،
وأنتِ النهايةُ التي يتمنّاها كلُّ دعاء.
وفي عينيكِ شيءٌ من السكينة،
يجعلُ القلبَ يؤمنُ أنّ اللهَ يهبُ بعضَ البشرِ قدرةً عجيبةً على ترميمِ الأرواح.
يا أجملَ صدفةٍ رتّبتها السماء،
إنّي أحبُّ تفاصيلكِ الصغيرة قبل الكبيرة؛
أحبُّ ارتباكَكِ حين تضحكين،
وصمتكِ الذي يحملُ ألفَ معنى،
وطريقتكِ في الحديثِ
كأنّ الكلماتِ تولدُ على شفتيكِ مزدانةً بالضوء.
أحبُّكِ لأنّكِ تُشبهين السلام،
ولأنّ قلبي حين يقتربُ منكِ،
يهدأُ كطائرٍ عادَ أخيراً إلى عشه.
ولأنّ الحياة ـــ مهما ازدحمتْ بالتعب ـــ تصبحُ أخفَّ حين تمرّين بها.

أتعلمين؟
ثمّة أشخاصٌ نحبّهم لأنّهم جميلون،
لكنّكِ جميلةٌ لأنّني أحببتكِ.
فالحبُّ حين يسكنُ إنساناً،
يكسوهُ بهاءً لا تصنعهُ المرايا،
بل تصنعهُ القلوب.
يا نبضاً يختبئُ بين أضلعي،
كلّما حاولتُ الهروبَ إليكِ،
اكتشفتُ أنّني منذ البدايةِ أقيمُ فيكِ.
أنتِ الوطنُ والمنفى،
والقصيدةُ والدهشة،
والسرُّ الذي يجعلُ للحياةِ معنى.
وحين يطولُ الغياب،
أبحثُ عنكِ في الأشياءِ الصغيرة؛
في رائحةِ القهوة،
في أغنيةٍ عابرة،
في المطرِ حين يطرقُ النوافذَ برفق،
وفي القمرِ حين يبدو وحيداً مثلي.
أشتاقُ إليكِ اشتياقَ البحرِ للشاطئ،
واشتياقَ الليلِ للفجر،
واشتياقَ القصائدِ لصوتِ شاعرها.
وكلُّ هذا الشوقِ لا يكفي؛
لأنّ القلبَ إذا أحبَّ بصدق،
صارَ الاتّساعُ فيهِ بلا حدود.
أنتِ النعمةُ التي أخافُ عليها من ضجيجِ العالم،
وأنتِ الدعوةُ التي أُخفيها بيني وبين السماء.
فما عدتُ أتمنّى الكثير؛ يكفيني أن تبقي قريبةً،
كقربِ الضوءِ من العين،
وكقربِ النبضِ من القلب.
يا سيّدةَ الحضور،
حين تتكلّمين، تُنصتُ المسافات،

وحين تبتسمين، تتعلّمُ الورودُ معنى التفتّح.
كأنّ الفرحَ خُلِقَ ليجدَ مكانهُ في ملامحكِ.
وإن سألتِني عن أعظمِ ما حدثَ لي،
فلن أذكرَ يوماً ولا مكاناً،
سأقولُ فقط:
"إنّني عرفتكِ".
فبعضُ الأشخاصِ لا يمرّون في العمرِ مروراً عابراً،
بل يُعيدون ترتيبَ القلبِ كلّه.
أحبُّكِ...
حبّاً لا تُطفئهُ المسافات،
ولا تُضعفهُ الأيّام،
حبّاً كلّما مرّ عليه الزمن، ازدادَ عمقاً وصفاءً،
كأنّهُ نهرٌ يتعلّمُ من الرحلةِ كيف يكونُ أجمل.
ولو أنّ الشعرَ يملكُ قلباً، لاختاركِ قصيدتَهُ الأخيرة.
ولو أنّ الوردَ يعرفُ الكلام،
لذكرَ اسمكِ في صلاتهِ مع الصباح.
ولو أنّ الليلَ يعشق، لعشقَ عينيكِ؛
لأنّ فيهما من السحرِ ما يكفي ليوقظَ النجوم.
فابقَي كما أنتِ...
قريبةً من القلب،
خفيفةً كنسمةِ فجر،
وعميقةً كبحرٍ لا تُدركُهُ النهايات.
ودعيني أحبُّكِ بطريقتي؛
بصدقٍ لا يعرفُ المبالغة،
وبوفاءِ قلبٍ وجدَ فيكِ أجملَ ما تمنّى.
أمّا أنا،
فسأظلُّ كلّما كتبتُ عنكِ،
أشعرُ أنّ الحروفَ أقلُّ من شعوري،
وأنّ اللغةَ ـــ مهما اتّسعت ـــ تضيقُ
أمامَ امرأةٍ تشبهُ القصائدَ حين تكونُ في ذروةِ جمالها.

أحبُّكِ...
وما بين حرفٍ وحرف،
ينبضُ قلبٌ يقولها لكِ إلى ما لا نهاية.

أحلامُ الحُطام

لا ترجُ قلبًا شحيحًا بالعطاء،
فأطيبُ العمرِ—إن ضنَّ به صاحبه—مضى وذهب،
وأندى المُنى إذا تأخرت، ذبلتْ كوردٍ عطِشٍ في مهبِّ التعب.
غابَ ما حلمتَ به خلفَ ضبابٍ كثيف،
توارى كأنّه سرٌّ خجول،
أو نجمةٌ أطفأتها يدُ السحاب قبل أن تبلغَ الأُفق.
وما تمنّاه قلبُك الوديع،
احتجبَ في صمتٍ مريب،
كأنّ الحياةَ وعدتْك ثم تراجعتْ،
وابتسمتْ لك يومًا... ثم انصرفت.
كلُّ ما كنتَ بالأمس تنشده،
كلُّ ما كنتَ تلهثُ خلفه كطفلٍ يطاردُ فراشة،

تبعثرَ في مهبِّ الذكريات،
وصارَ هباءً... لا يُمسك، ولا يُرى، ولا يُستعاد.

X

يا شاعرَ الحبِّ والجمال،
أما زلتَ تسعى لابتلاعِ القِباب؟
أما زلتَ ترفعُ كفّيك إلى سماءٍ بعيدة،
تظنُّها تُصغي، وهي في غفلةٍ عن نداءاتك؟
يا شاعرَ الحب،
لن تفيقَ من خمره ما دامَ فيك نبض،
ولا من شرابه ما دام في عينيك بريق.
تجري وراءَ خيالٍ هارب،
وتغترفُ من كؤوسه جرعاتٍ لذيذة،
لكنها - في ختامها - تُورثُكَ مرارةَ السهاد.
والحُسنُ، يا شاعرَ الجمال،
يمرُّ هنا كطيفٍ عابر،
لا يستأذنُ بابًا،
ولا يُلقي التحية على العتبات،
يأتي كنسمةٍ،
ويمضي كذكرى،
ويتركُ القلبَ معلقًا بين الدهشةِ والحنين.
أخفقتَ، يا خافقَ الفؤاد،
وما كان إخفاقُك إلا لأنك أحببتَ بصدق،
وقاسيتَ من الحبِّ ما يُقاسيه العاشقون:
سقمٌ جميل، وتعبٌ شهي،
وألمٌ يُشبه اللذّة في خفائه.
أما ترى الليلَ والنهار،
كيف تعاقبا عليك كحدّين من سيفٍ واحد؟
كيف حطّما فيك كلَّ ما اجتذبته من أمل،
وتركاكَ واقفًا على أطلالِ نفسك؟
وصرتَ...
هذا الحطامَ النابض،

جسدٌ يسكنه الصمت،
وقلبٌ يعزفُ ألحانًا لا يسمعها أحد.
إذا لامسَ الدواءُ جراحَك،
ظننتَ أنّ الحياةَ تبتسم،
لكنها – كعادتها - تهرب،
تتركُك بين رجاءٍ لا يكتمل،
وخذلانٍ يتكرّر.
أما ترى الشمسَ حين تميلُ نحو الغروب،
كيف تُوحي بأن النهايةَ قريبة؟
وكيف تهمسُ للأشياء:
"كلُّ جمالٍ إلى أفول،
وكلُّ بدايةٍ تحملُ في طيّاتها ختامًا خفيًّا"؟

X

يا شاعرَ الحب،
لم تفق بعدُ من نشوته،
ولا تزالُ تسكنُ في حرّ ناره،
تتقلّبُ بين لهيبها ودفئها،
كأنّك وجدتَ فيها ضياعك... ونجاتك معًا.
فيك قلبٌ اشتعلَ بالحب،
حتى صارَ وهجًا يمشي على قدمين،
حوّلتَه - بوهمك الجميل - جنةً خضراء،
لا لغو فيها ولا صخب،
جنةً من طهرٍ صافٍ،
تطوفُ بها خيالاتُ الوحي،
وتهمسُ فيها الأمنيات.
والحبُّ - إن ملكَ الفؤاد -
رفعَه إلى سماءٍ لا تُدرك،
وجعلَه يُحلّقُ فوق حدودِ الألم،
كأنّه نُسبَ إلى نورٍ علويٍّ لا يخبو.
لكن،
يا نارَ القلب في توهّمه،

والوهمُ – للقلب - صانعُ الأكاذيب الجميلة،
أرفقْ بنفسٍ سكنتْكَ زمنًا،
وأرفقْ بقلبٍ كانَ يهفو بنبضك طربًا،
ثم صارَ يئنُّ من شدّةِ الانتظار.
أحلامُه...
ما تزالُ تعاوده،
ككأسٍ تدورُ بين الشفاه،
ترقصُ فيها الفقاعات،
وتوهمُ الظمآنَ بالارتواء.
غمامةٌ مرّت بسماء قلبك،
لم تمطرْ،
لكنها تركتْ ظلالًا ثقيلة،
فأثقلتْ الفؤادَ باكتئابٍ شفيف،
كأنّه حزنٌ لا يُرى... لكنه يُحسّ.
وإذا لاحَ برقٌ في الأفق،
لمعتْ خواطرُك،
واختطفَ الخيالُ روحك،
فعدتَ تُصدّقُ الوعدَ القديم،
وتنسجُ من الضوء حكايةً جديدة.
لكن،
ما إن يخبو الوميض،
حتى تسمعَ الصوتَ الخافت في داخلك:
"لقد انطفأ الضوء... فيك، لا في السماء".

X

لا ترجُ قلبًا لا يجود،
ولا تركنْ إلى ظلٍّ لا يدوم،
فأطيبُ العمرِ إن أُهدر،
لا يعود،
وأجملُ المُنى إن تأخرت،
تذبلُ في صمتٍ... ثم تموت.

واجعلْ من الحطامِ بداية،
ومن الألمِ لحنًا،
ومن الخيبةِ جناحًا خفيًّا،
يحملك - ولو بعد حين -
إلى أفقٍ جديد.
فما الحطامُ إلا شكلٌ آخرُ للحياة،
وما الانكسارُ إلا درسٌ في النهوض،
وما الحبُّ - مهما أوجع -
إلا بابٌ إلى معرفةِ القلب بنفسه.
امضِ...
ولو مثقلاً بالذكريات،
ولو مثقلاً بالحنين،
ففي الطريقِ دومًا
شيءٌ يستحقُّ أن يُعاش.
وإن ضاعَ منك الحلمُ يومًا،
فلا تدعْ روحك تضيع معه،
بل ازرعْ في داخلك حلمًا جديدًا،
أكثرَ صدقًا،
أكثرَ هدوءًا،
وأقربَ إلى قلبك... من كلِّ ما مضى.

X

لا ترجُ من ضنَّ أن يهب،
فالعطاءُ روح، لا يُتعلَّم،
والحبُّ نبع، لا يُستعار.
واذكر - وأنت تمضي -
أنّ أجملَ ما في الحلم،
ليس تحقّقه،
بل ذلك الضوء الذي يسكبه في القلب
قبل أن يتحقّق... أو يضيع.

عيونها الجاحدة

ماذا تريدين؟
وسيفُ السؤالِ على شفتيَّ مُشرَعٌ ،
وأنتِ - واقفـةٌ - تُحادّينَ الصمتَ العنيد،
كأنكِ صخرٌ يُنازعُهُ الصدى ،
أو ليلٌ يُشاكسُ فجرًا وليد.
وعيناكِ...
يا لهما من عيدٍ غاضبٍ ،
لا يحملُ الفرحَ ، بل يكتنزُ الوعيد ،

كفُوَّهتَي بركانٍ
تغليانِ بالحميمِ المكبوت ،
وتنثرانِ شررَ الألمِ البعيد.
وذاكِ القتيلُ... أنا ،
مُلقىً على عتبةِ الصمت ،
تملّكني وجومٌ كثيف ،
كأن الحزنَ وطنٌ قديم
يسكنُني ولا أبارحُهُ.
وبرغمِ أنكِ بالصراخِ تُهددين ،
وبرغمِ نظراتكِ
المشحونةِ بسيوفِ القسوة ،
ما زال في القلبِ
نهرٌ حنون ،
يرتجفُ شوقًا
لأيامِ التلاقي ،
كي تعود...
بهواكِ
رغم العواصفِ العاتية،
ورغمَ جراحِ الصدور،
ما زال حبّي...
يُقاوم،
يُريد،
ويُجيدُ الانتظار.

+

ماذا تريدين؟
وأجبتُ - بخوفٍ مريع -
كأنّ الكلماتِ طيورٌ مذعورة
تحطُّ على شفتيَّ
ثم تفرُّ.

وفؤادي...
ذاك المذعورُ،
تعصرهُ الضلوعُ
كما يُعصرُ الليلُ آخرَ أنفاسِه
قبل الفجر.
خفقاتي الحيرى... دموع ،
وأحلامي...
أشلاءُ نورٍ مكسور ،
ما زلتُ أحلمُ بالرجوع ،
كغريقٍ
يُلاحقُ ظلَّ شاطئٍ بعيد.
ما زلتُ أبحثُ...
في زحامِ الوجوه ،
في طرقاتِ التيه ،
في صخبِ الحياة ،
عن بقايا حُلمٍ
تحطّم قبل أن يولد .
عن حبّي...
الموءودِ قبل الفِطام ،
عن طفلِ الشوق
الذي لم يعرفِ الدفءَ يومًا ،
عن فرحةٍ
توارَت خلفَ ذبولِ الأيام ،
وانطفأت
قبل أن تُسمّى ابتسام.
لكن...
اليأسَ - يا سيدتي -
جبلٌ عنيد ،
أقام في صدري
حصنًا لا يُهَدّ،
ففقد القلبُ دليله ،

وغدا على دربِ العمرِ
شريدًا ،
لا يعرفُ وجهةً ،
ولا يستريحُ في مقام.

+

ماذا تريدين؟
والناسُ حولي
دوائرُ من عيون ،
تُحدّقُ في دهشةٍ مصطنعة ،
وتنسجُ من العجبِ
ألفَ رواية.
الكلُّ...
يدّعي الشرفَ ،
يُفاخرُ بالمروءة ،
يتزيّنُ بالشَّهامة ،
كأنّ القيمَ
أقنعةٌ تُلبسُ عند اللزوم.
لكنني...
أبصرُ ما وراء الوجوه ،
فجميعهم—
مرضى الروح ،
يعانونَ جدبَ المعنى ،
ويقتاتونَ على فتاتِ التفاهة.
الكلُّ يلعنُ جرأتي ،
يُدينُ وقاحتي ،
ويُقيمُ لي
محكمةً من الظنون ،
لكنهم...
لا يجهلونني فقط ،
بل يجهلونَ
أنينَ الحقيقة.

لا يشعرونَ بلوعتي ،
ولا يقرؤونَ
ما بينَ سطورِ الصمت.
لو زاروا – مرةً- غرفتي ،
لرأوا...
جدائلَ شعركِ
معلّقةً كأغنيةٍ قديمة ،
وبقايا عطركِ
في زجاجةٍ
تتنفسُ الذكرى.
لأدركوا...
أنكِ كبّلتِ قلبي
بقيودٍ من وعد ،
ثم تركتِهُ
يتعثّرُ في الفراغ .
فهل يُلامُ عاشقٌ
إن هفا إلى أملٍ جديد ؟
أم يُدانُ القلبُ
إن حاول النجاة ؟

+

ماذا تريدين ؟
وأنا الآن...
أغفو خلفَ قضبانِ الضلوع ،
لا فرقَ بين الليلِ والنهار،
فالزمنُ هنا
يُقاسُ بالأنين.
وقلبي...
قطعةُ جليد ،
تكسوهُ برودةُ الغياب ،
وترتفعُ فوقهُ
سُحبُ الكآبةِ الثقيلة.

والشرطيُّ -
بصوتهِ الجاف -
يسألني:
من أنت ؟
كم عمرك ؟
أين تسكن ؟
فأجبته - بابتسامةٍ مكسورة:
أنا... إنسان ،
تعبَ من تعريفِ نفسه ،
أنا عمرٌ
تاهَ بين الأمسِ واليوم ،
أنا عنوانٌ
كان الجنان ،
ثم صارَ قفصَ اتهام.
أنا -
مسهدُ العينين ،
مُجهدُ البنيان ،
تنهشني الذكرياتُ
كما تنهشُ الهوامُ
جسدًا منسيًّا.
فلا تسأل عني ،
ولا تُوقظ فيَّ
حكاياتِ الألم ،
دعني...
في غياباتي
وحيدًا ،
أتجرّعُ الذكرى
ككأسٍ مُرّ،
ويطويني الأمسُ
كما يطوي الغروبُ
آخرَ خيطٍ من الضوء.

+

ماذا تريدين؟
سؤالٌ لم يعد ينتظرُ جوابًا ،
بل صارَ مرآةً
أرى فيها
وجهي المُتعب.
لقد صارتِ الثورةُ
في عينيكِ...
اتهامًا ،
وفي عينيّ...
حُلمًا مكسورًا.
وما بيننا—
مسافةٌ من صمت ،
أوسعُ من الغياب ،
وأقسى من الوداع.
فإن عدتِ يومًا...
لن أسأل: ماذا تريدين ؟
بل سأقول -
وقد تعلّمتُ من انكساري :
إن الحبَّ...
ليس معركة ،
ولا انتصارًا ،
بل هو وطنٌ ،
إن ضاع...
ضاعَ فيهِ
كلُّ شيء.

على ضفاف الأمل ونوافذ الشوق

أصالةُ الرأيِ صانتني من الزَّلل،
وزينةُ الفضلِ ألبستني ثوبَ الجمالِ والكمال.
فمجدِي شمسٌ لا تغيب، يشرقُ أولَ النهار وآخرَه،
كما يشرقُ الضياءُ في المهدِ كما يشرقُ في الأصيل.

وما لي أُقيمُ بأرضٍ لا مأوى فيها لروحي،
ولا ظلَّ فيها لأحلامي، ولا دفءَ فيها لحنيني؟
غريبٌ عن الأهل، بعيدٌ عن الودِّ،
أمضي وحيدًا كالسيفِ إذا جُرِّد من غمده،
قويًّا في ظاهره، جريحًا في سريرته.

لا صديقَ أبوحُ له بوجعي،
ولا أنيسَ أُهدي إليه فرحي،
فقد طالَ اغترابي حتى اشتاقتْ إليَّ الطرقات،
وحنَّتْ إليَّ الرواحلُ والرِّحال،
وتعبَ الركبُ من طولِ المسير،
وضجَّتْ الخطى من وعثاءِ الطريق.

أمدُّ كفَّ الرجاء لأبلغَ ما أرجو من المعالي،
غير أنَّ الدهرَ يعاكسُ الأماني،
فيُريني القمرَ من بعيد،
ثم يُقنعني من الغنيمةِ بظلِّ السراب.

ولقيتُ من الرجالِ من جمعَ بين اللينِ والبأس،
فكان حلوَ الحديثِ إذا ما داعبَ الأرواح،
مرَّ العزيمةِ إذا ما نادى الوغى،
فيه رقةُ الغزلِ وقوةُ البطل،
واجتمعَ الضدَّانِ فازدادَ بهاؤهُ اكتمالًا.

سهرتُ أطردُ النومَ عن جفونه،
بينما الليلُ يسكبُ على العيونِ خمرةَ الكرى،
والركبُ بين صاحٍ وثَمِل،
وبين عاشقٍ يقتاتُ من الذكرى،
وولهانَ يقتبسُ من الشوقِ نارَه.

فقلتُ له:
كيف أدعوكَ للنصرةِ في الملمات،
وأنتَ تتأخرُ عند اشتدادِ الخُطوب؟
أتنامُ وعينُ النجمِ ساهرة،
ويغفو جفنكَ والليلُ لم يخلعْ عباءتَه السوداء؟

ثم مضيتُ أطلبُ ديارَ الأحبة،
أستنشقُ عطرَ حضورهم من نسائمِ الليل،
وأهتدي إلى منازلهم بعبيرِ الطيب،
فالحبُّ طريقٌ تُضاءُ دروبهُ بالعطرِ لا بالمصابيح.

هناك حيثُ الغواني كالأقمار،
شعورُهنَّ ليلٌ، ووجوهُهنَّ فجر،
وأعينُهنَّ سهامٌ من كحلٍ وغنج،
تُصيبُ القلبَ بلا وترٍ ولا قوس.

يزيدُ مجالسَهم جمالًا كرمُ النفوس،
فلا بخلٌ يُعكِّر صفوَ المودة،
ولا جبنٌ يُطفئ جذوةَ الشهامة.
نارُ الحبِّ تتقدُ في القلوب،
ونارُ القِرى تتألقُ فوق التلال،
فهذا كرمُ المشاعر، وذاك كرمُ المنازل.

كم من عليلٍ شفاهُ وصالٌ،
وكم من مكسورٍ جبرهُ لقاء،
وكم من روحٍ أعاد إليها الأملُ نبضَ الحياة.

وما رهبتُ يومًا طعنةَ السيف،
إذا رافقتها نظرةٌ من عينٍ فاتنة،
ولا خشيتُ بياضَ الصفاح،
إذا أهداني بياضُ الوجوهِ ابتسامةً صادقة.

فالحياةُ لا تُعطِي المجدَ للمترددين،
ولا تفتحُ أبوابَها للكسالى،
وحبُّ السلامةِ كثيرًا ما يُطفئ وهجَ الطموح،
ويُقنعُ النفسَ بالظلِّ بدلَ الشمس.

دعْ دروبَ العُلا لأهلِ العزائم،
واركبْ صهوةَ الحلمِ وإن وعُرتِ المسالك،
فالعزُّ في الرحيلِ والسعي،
لا في الركونِ إلى المألوفِ والمستحيل.

لقد حدَّثتني المعالي حديثًا لا كذبَ فيه،
أنَّ المجدَ ابنُ الحركة،
وأنَّ الكرامةَ بنتُ المغامرة،
وأنَّ الشمسَ لو رضيتْ بمكانها
لما عبرتْ سماءَ النهار.

أُعلِّلُ النفسَ بالأملِ الجميل،
فما أضيقَ الدنيا لولا فسحةُ الرجاء،
وما أقسى الليالي لولا نجمةٌ بعيدة
تعدُ القلبَ بقربِ الصباح.

عرفتُ قيمتي فصُنتُها عن الهوان،
فالجوهرةُ لا تُلقى على قارعةِ الطريق،
والسيفُ النفيسُ لا يليقُ إلا بكفِّ فارس.

وقد رأيتُ زمانًا يرتفعُ فيه من لا يستحق،
ويتأخرُ فيه أصحابُ الفضل،

لكنَّ الشمسَ نفسها تغيبُ أحيانًا،
ولا ينقصُ الغروبُ من نورها شيئًا.

فاصبرْ على تقلُّبِ الأيام،
ولا تُسلمْ قيادَ قلبكَ لليأس،
فأقربُ الناسِ قد يكونُ أبعدَهم وفاءً،
وأشدُّهم ابتسامًا قد يُخفي خلفَ ابتسامته غدرًا.

غاضَ الوفاءُ حتى كادَ يُنسى،
وفاضَ الغدرُ حتى صار مألوفًا،
واتسعتِ المسافةُ بين القولِ والعمل،
فصار الصدقُ غريبًا بين أهله.

ومع ذلك،
يبقى القنوعُ ملكًا وإن خلا من الجند،
ويبقى الحرُّ عزيزًا وإن قلَّ المال،
فالقناعةُ تاجٌ لا يُنتزع،
والكرامةُ كنزٌ لا يفنى.

وأخيرًا...

إذا رشَّحك الزمانُ لأمرٍ عظيم،
فكنْ على قدرِ الرسالة،
واربأ بنفسكَ عن مواطنِ الصَّغار،
فالنسرُ لا يليقُ به أن يحلِّقَ مع أسرابِ الهَمَل.

❀فالأملُ وإن تأخرَ، آتٍ...
والحبُّ وإن غابَ، باقٍ...
والمجدُ وإن تعثَّرَ،

لا بدَّ أن يبلغَ قممَه من عرفَ قدرَ نفسه،

وأخلصَ السيرَ إلى حلمه .

عينيك

بعدَ ارتحالي الطويلِ في منافي الوجوه،
وبعدَ سفري وحيدًا في مُقَلِ النساء،
أجوبُ الملامحَ كما يجوبُ الطائرُ التائهُ خرائطَ السماء،
أفتّشُ عن عينٍ تُؤويني،
عن نظرةٍ إذا مرّت على روحي
أزهرتْ فيها حدائقُ الطمأنينة،
وسالَ في مسامِّها ماءُ الرجاء.

بحثتُ عنكِ
في وجوهٍ كثيرةٍ تشبهُ الصباحَ ولا تُشبهه،
تلمعُ كالنجمِ من بعيد،
لكنها حين تقتربُ
لا تمنحُ القلبَ إلا مزيدًا من العناء.
وكنتُ كلّما ظننتُ أني بلغتُ مرفأَ الحنان
ألفيتُني أرسو على شاطئِ السراب،
فأعودُ أكثرَ تعبًا،
وأشدَّ انكسارًا،
كغريبٍ أضاعَ اسمَه في زحامِ النداء.

نعاني - أنا وقلبي - سهادًا طويلًا،
كأنّ الليلَ أقسمَ ألا يرحل،
وألا يتركَ للجفنِ هدأةً

ولا للروحِ فسحةَ صفاء.
نعاني ضياعَ الحياةِ إذا غابَ وجهُكِ،
ونحيا التيهَ إذا لم يلمعْ في البعيدِ
وعدُ اللقاء.
وكم شربنا من كؤوسِ الوهمِ
حتى حسبنا السمَّ شهدًا،
وكم عشنا من الأعوامِ
وما عشنا سوى عمرِ الشقاء.

ثم جئتِ...
بعد السرابِ والعذاب،
بعدَ اغترابي في ليالي الشتاءِ الطويلة،
حيثُ كان البردُ ينهشُ وحدتي،
وكانت الريحُ تعزفُ على نافذتي
مراثي الغياب.

بعدَ اغترابي في ليالي الخريف الطويلة،
حيث تسقط أوراق الشجر الذابلة ،

و الرياح محملة بغبار خانق

جئتِ كأنكِ الوعدُ الذي أخلفه الزمنُ ثم عاد يعتذر،
كأنكِ فجرٌ أفاقَ من سباتِ الغيم،
وأهدى للأرضِ أولَ خيطٍ من الضياء.

أرى مُقلتيكِ
جزائرَ شوقٍ مبعثرةً فوق بحرِ الحنين،
كلُّ جزيرةٍ منها وطنٌ،
وكلُّ وطنٍ منها نجاة.
فيهما يرسو قلبي
بعد طولِ الإبحار،
ويُلقي عن كتفيه تعبَ المرافئ،
ويخلعُ ثوبَ الأسى
ليلبسَ نورَ الصفاء.

أرى مقلتيكِ
كباقاتِ وردٍ
أرسلها حبيبٌ بعيدٌ
ليعتذرَ عن كلِّ هذا الغياب،
ولتغسلَ عن روحي غبارَ المنافي،
ولتمسحَ عن عينيَّ سهادَ الليالي،
ولتمحو من دفاتري
سيرةَ اليأسِ والانتظار.

يا لروعةِ حضوركِ
حين يهبطُ على القلبِ
كالمطرِ الأوّلِ فوق أرضٍ عطشى،
فيوقظُ فيها ألفَ سنبلة،
وألفَ أغنية،
وألفَ نهرٍ من الدعاء.

جئتِ
لتبعثي في الحسِّ نبضًا جديدًا،
وتشعلي ما أخمدتهُ الليالي من حنين
من قناديلَ كانت تنامُ على جدرانِ الروح.
جئتِ
كأنكِ ينبوعُ سحرٍ فريد،
إذا لامسَ صخرتي اليابسة
تفجّرَ منها الماءُ،
ورقصَ في ضلوعي الندى.

وتأتينَ كفجرٍ ذكيِّ السمات،
له مكرُ الضوءِ وبراءةُ الطفل،
وشقاوةُ العصفورِ حين يختبرُ جناحيه
لأوّلِ مرّة.
فأنتِ البدءُ بعد انتهاء،
وأنتِ الحياةُ إذا ضاقتِ الحياة،
وأنتِ القصيدةُ إذا خانتني اللغة،

وأنتِ المعنى إذا تاهتْ حروفي
في متاهاتِ الهجاء.

فهاتِ يديكِ،
واجمعيني من شتاتي،
كما تجمعُ الأمُّ شظايا الحلمِ
من قلبِ طفلٍ بكى.
ضمّيني إليكِ ، إلى صدرك
حتى أذوبَ خلالكِ
كما يذوبُ العطرُ في الورد،
وكما يذوبُ النورُ في المرايا،
وكما يذوبُ النهرُ في صدرِ البحر.

دعيني أعبرُ في وريديكِ
كأنني نبضةٌ خُلقتْ لتسكنَكِ،
وكأنكِ الدمُ الذي به أعيش
يكتملُ في القلبِ معنى البقاء.

نعانقُ شوقَ الحياةِ
فنغدو همستينِ على شرفةِ مساء،
وعطرينِ التقيا صدفةً
فأنجبا هذا الفضاءَ المضمّخَ بالوجد.
ونصيرُ نبضًا يرقصُ بين الخمائل،
حيثُ ظلُّ الجداولِ
يُرتّلُ أنشودةَ العشقِ
وتُصغي إليه الطيورُ
في خشوعِ المساء.

هناك،
حين ينامُ العالمُ على ضجيجه،
نظلُّ وحدنا
نكتبُ على صفحةِ الصمتِ
سيرةَ هذا الهوى الدفين،

ونتركُ للياسمينِ
أن يُكملَ ما عجزتْ عنهُ الكلمات.

فما أجملَ اليومَ هذا اللقاء،
وما أبهى العمرَ حين يبتدئُ من عينيكِ.
كأنّ السنينَ التي مضتْ
لم تكن إلا تمهيدًا
لهذه اللحظة الفريدة ،
لهذا الندى الذي انسكبَ على قلبي،
لهذا الميلادِ الجديد.

اليومَ فقط يا حبيبتي
أدركتُ أن الراحةَ ليست مكانًا،
ولا وطنًا من تراب،
بل عينانِ إذا نظرتُ فيهما
سكنَ البحرُ في صدري،
وهدأتْ عواصفُ الروح.

اليومَ فقط يا حبيبتي
عرفتُ أنني ما كنتُ أبحثُ عن امرأة،
بل عن نجمةٍ
تدلُّ قلبي إذا ضلَّ الطريق،
وعن حضنِ معنى
إذا ضاقتْ عليَّ الجهات.

فارتاحي بي
كما أرتاحُ في عينيكِ،
ودعينا نبدأُ عمرًا
لا يُقاسُ بالوقت،
بل بعددِ النبضاتِ التي تُزهرُ بيننا،
وبعددِ الأحلامِ التي تنامُ في كفّينا.

وما أجملَ اليوم...
عمري الجديد،
إذ وُلدتُ من نظرةٍ،

ومن وردةِ همسٍ،
ومن رعشةِ شوقٍ
تُسمّى :**عينيكِ**.

عودةُ الطائرِ الشريد

حينَ يعودُ القلبُ إلى عُشِّهِ، وتعودُ الروحُ إلى أغنيتِها الأولى

قلتُ لهُ :**غدًا أعودُ،**
بعدَ طولِ الغربةِ، وبعدَ ليالٍ كانتْ تمضي بطيئةً كأنها لا تنتهي،
أعودُ إلى المدينةِ التي تركتُ فيها بعضَ عمري،
وتركتُ على أرصفتِها خطايَ،
وفي زواياها ضحكاتي،
وعلى نوافذِها أحلامي الصغيرة.

أجل، غدًا أعودُ،
أعودُ إلى الطرقاتِ التي كانتْ تعرفُ اسمي،
وإلى البيوتِ التي كانتْ تفتحُ أبوابَها للدفءِ قبلَ الزائرين،
أعودُ إلى مدينتي التي كانتْ إذا ابتسمَ صباحُها
أزهرتْ في القلبِ حدائقُ من الطمأنينةِ والحنين.

هناكَ،
على شفاهِ روضِها،
سكبتُ أجملَ أغنياتي،
وفي عيونِ ليلِها الهادئِ
زرعتُ نجومًا من الأمنيات،
فكانتْ السماءُ تُصغي لنبضِ قلبي،

وكانَ القمرُ يمرُّ على نوافذِها
كعاشقٍ يحملُ رسالةَ شوقٍ لا تنتهي.

أجل، لقد قلتُ لهُ :**غدًا أعودُ،**
فالحرُّ، مهما باعدتْ بينهُ المسافاتُ،
يبقى وفيًّا لعهدِه،
يحفظُ الودَّ وإن طالَ البعاد،
ويصونُ الذكرى وإن غابتِ الوجوه،
ويقدِّسُ الماضي الجميل،
ويُتمُّ الوعدَ إذا حانَ اللقاء.

لكنَّ في الدمِ كبرياءً لا يلين،
وفي الروحِ إباءً لا ينحني،
فالقلبُ يشتاقُ إلى العودة،
والكبرياءُ يخشى الخضوع،
وبينَ الشوقِ والشموخِ
كانتْ روحي تمضي كطائرٍ
يحملُ جناحينِ من حنينٍ وحنان،
ومن نارٍ ونور.

لم يَعُدْ بينَ السفوحِ والذُّرى فرق،
فكلُّ شيءٍ هناكَ
صارَ يرتدي ثوبَ الجمالِ القديم،
حتى الترابُ غدا تِبرًا يلمعُ في العيون،
وحتى الحجارةُ الصمّاءُ
أصبحتْ تنطقُ بلغةِ الذكريات،
وتغدقُ على القلبِ حكاياتٍ وعبرًا.

وأصبحَ الربيعُ،
ذلكَ العازفُ الأبديُّ،
يطرقُ أبوابَ المواسمِ بألحانِه الخضراءِ،
فتنهضُ الأشجارُ من صمتِها،
وتبتسمُ الحقولُ بعدَ طولِ انتظار.

أما النجومُ الوضّاءةُ،
فكانتْ في سماءِ المدينةِ
تختبئُ خلفَ غيومِ الحزنِ،
كأنها تتنفسُ الشوقَ بصعوبة،
وتنتظرُ عودةَ الغائبِ
لتستعيدَ بريقَها القديم.

فكيفَ لا أعودُ؟
والنورُ ما زالَ يسكنُ النوافذ،
والشوقُ ما زالَ ينامُ على العتبات،
والذكرياتُ ما زالتْ
تلوّحُ لي من بعيدٍ
كما تلوّحُ الأمهاتُ للمسافرين.

كيفَ لا أعودُ؟
وقد صارَ الصمتُ يُنبتُ الورود،
وأصبحَ الحطبُ اليابسُ
يعزفُ سمفونيةَ الخلود،
وتحوّلَ الرمادُ إلى رمادٍ يلدُ الشرر،
والألمُ إلى أمل،
والغيابُ إلى اقتراب.

يا للعجبِ!
كيفَ يجتمعُ الضدّانِ في قلبٍ واحد؟
كيفَ يسكنُ الليلُ والنهارُ نافذةً واحدة؟
وكيفَ يتعانقُ البعدُ والقربُ
في روحِ عاشقٍ أرهقتْهُ المسافات؟

غدًا أعودُ يا صديقي،
رغمَ ثورةِ الآباء،
ورغمَ الأسئلةِ التي تُشبهُ العواصف،
ورغمَ الأبوابِ التي أوصدها الخوفُ
وفتحتها الذكرى.

أعودُ لأشهدَ الظلامَ
وهو يحاولُ أن يهزمَ الضياء،
لكنَّ الفجرَ، مهما تأخرَ،
لا بدَّ أن يأتي.

وأعودُ لأشهدَ السرابَ
وهو يخدعُ العطاشى،
لكنَّ الحقيقةَ تبقى نبعًا لا يجف،
وماءً لا يخون.

وأعودُ لأشهدَ النفاقَ
وهو يصعدُ السلالمَ العالية،
بينما الصدقُ يسيرُ حافيَ القدمين،
لكنَّه يصلُ أولًا،
ويبقى طويلًا.

وأعودُ لأشهدَ الضميرَ
وهو ينزفُ في صمتٍ،
فالجرحُ الصامتُ
أشدُّ وجعًا من الصراخ،
والدمعةُ الخفيّةُ
أصدقُ من ألفِ خطاب.

ومع ذلكَ كلِّه،
سأعودُ...

أجل، سأعودُ،
وفي يديَ الماضي
يمشي كرفيقِ سفرٍ قديم،
يحملُ صورَ الوجوهِ التي أحببتُها،
وأصواتَ الأزقةِ التي عبرتُها،
ورائحةَ الخبزِ الدافئِ في الصباح،
ورائحةَ المطرِ حينَ كانَ يطرقُ النوافذَ برفق.

سأعودُ
فتلتقي القلوبُ بعدَ طولِ افتراق،
وتتصافحُ الأرواحُ بعدَ عناءِ السنين،
ويعودُ النبضُ إلى أمكنتهِ الأولى،
ويعودُ الدفءُ إلى مواقدِه القديمة.

هناكَ،
عندَ أولِ بابٍ من أبوابِ الحنين،
سأتركُ تعبي على العتبة،
وأدخلُ خفيفًا كنسمةِ مساء،
هادئًا كدعاءِ أمٍّ في آخرِ الليل.

وهناكَ أيضًا،
سيجدُ الطائرُ الشريدُ
غصنَهُ الذي أضاعهُ في الريح،
وعشَّهُ الذي أخفتهُ المسافات،
وسماءَهُ التي ظلَّ يحملُها
في قلبِه أينما ذهب.

فما أطولَ الغيابَ حينَ يكونُ الوطنُ بعيدًا،
وما أقصرَ المسافاتِ
حينَ يقودُ الحنينُ الخطى.

إنَّ للروحِ أوطانًا
لا تُقاسُ بالخرائط،
وللقلبِ مدائنَ
لا تُبنى بالحجارة،
بل تُبنى بالحبِّ،
وتُضاءُ بالذكرى،
وتبقى عامرةً
مهما مرَّ عليها الزمن.

وهكذا،
بعدَ سفرِ الريحِ،
وبعدَ تعبِ الطريق،

وبعدَ ليالٍ طويلةٍ
كانتْ تنامُ على وسادةِ الانتظار،
يعودُ الطائرُ الشريدُ أخيرًا،
لا ليبدأَ رحلةً جديدة،
بل ليجدَ النهايةَ التي تُشبهُ البداية،
والبدايةَ التي تُشبهُ الحلم.

يعودُ
وفي جناحيهِ غبارُ الأسفار،
وفي عينيهِ بقايا نجومٍ بعيدة،
وفي قلبِهِ وطنٌ كاملٌ
لم يغادرهُ يومًا،
حتى وهو بعيد.

ويستقرُّ أخيرًا،
بعدَ عناءِ السرّ البعيد،
وبعدَ صمتِ المنافي الطويل،
وبعدَ حوارِ الشوقِ والشموخ،
على غصنِ المحبةِ والأمان.

هناكَ فقط،
يفهمُ الطائرُ الشريدُ
أنَّ بعضَ الرحلاتِ
لا تكونُ بحثًا عن مكان،
بل بحثًا عن قلب،
وأنَّ أجملَ عودةٍ
هي تلكَ التي يعودُ فيها الإنسانُ
إلى نفسِهِ،
وإلى أحبّتِهِ،
وإلى وطنِهِ الذي يسكنُهُ
كما يسكنُ الضوءُ في الفجر،
والعطرُ في الورد،
والنبضُ في القلب.

وهكذا عادَ الطائرُ الشريدُ،
فعادَ معهُ الربيعُ،
وعادَ معهُ الغناء،
وعادَ معهُ الحنينُ حنينًا،
والوطنُ وطنًا،
والقلبُ قلبًا...
وعادَتِ الحياةُ تُشبهُ الحياة.

التفاحةِ والقدر...

شاءَ ربّي لآدمَ الشجرةَ امتحانًا،
لا إغراءً ولا حرمانًا،
بل ميزانًا يُوزَنُ به القلبُ إذا مال،
ويُعرَفُ به الصادقُ إذا قال،
ويُفتَضَحُ به الهوى إذا استطال.

كان يعلمُ سبحانه ما سيكون،
فلا يخفى عليه سرٌّ ولا يهون،
لكنَّ العلمَ شيءٌ،
ووقوعَ الفعلِ شيءٌ آخر؛
فلا يُحاسَبُ عبدٌ على ما لم يعمل،
ولا يُجزَى قلبٌ قبل أن يختارَ الطريق.

قال: لا تقتربا.
وكان النهيُ رحمةً،
لا قسوةً ولا نقمةً.
فالحدودُ سياجُ المحبة،
وليستْ أسوارَ العقوبة.

ثم شاءَ أن يمتحنَ الخليقة،
فانكشفَ ما كان مستورًا،
وظهرَ ما كان مكنونًا.

كبرَ إبليسُ،
فاستكبرَ حتى صَغُر،
وتعالَى حتى هوى،
وظنَّ أن النارَ أشرفُ من الطين،
فنسيَ أن الكرامةَ بالطاعة،
لا بالمادةِ ولا بالصورة.

قيل له :**اسجد.**

فقال الهوى :**لن أسجد.**

وقال الكِبْر :**أنا خيرٌ منه.**

وما علم المسكينُ
أن كلمةَ "أنا"
إذا سبقتِ الطاعةَ
كانت أولَ طريقِ الخسارة.

يا للعجب!

إبليسُ لم يخسرْ لأنه ناقش،
بل لأنه كابر.

ولم يهلكْ لأنه سأل،
بل لأنه جادلَ بعد ظهورِ الحق.

أما آدمُ،
فلم يكن متكبرًا،
ولم يدّعِ العصمة،
ولم يقل: "أنا خير".
بل زلَّ،
وكلُّ ابنِ آدمَ يزلّ،

ثم تاب،
وكلُّ كريمٍ إذا أخطأ عاد.

شتّانَ بين مَن يعترفُ فيرتفع،
ومن يتكبّرُ فينخفض.

آدمُ قال:
ربَّنا ظلمنا أنفسنا.

وإبليسُ قال:
أنا خيرٌ منه.

فكانت كلمةُ التوبةِ سلّمًا،
وكانت كلمةُ الغرورِ سجنًا.

سبحانَ ربٍّ
لا يظلمُ مثقالَ ذرة،
ولا يُؤاخذُ نفسًا بغيرِ ما كسبت،
ولا يغلقُ بابَ الرحمةِ في وجهِ التائبين.

جعلَ الدنيا ميدانًا،
لا سجنًا ولا بستانًا دائمًا،
فيها ضحكةٌ تعقبها دمعة،
وفيها دمعةٌ تلدُ بسمة.

فيها ليلٌ ونهار،
وسرورٌ واعتبار،
ويسرٌ وإعسار،
ليعرفَ الإنسانُ أن الكمالَ لله وحده.

ولو بقي آدمُ في الجنة،
ما عرفتِ الأرضُ أسماءَ أبنائها،
ولا ازدانتْ بضحكاتِ الأطفال،
ولا امتلأتْ طرقاتُها بالعابرين،
ولا تعاقبتْ عليها الحضاراتُ والأعمار.

ومن تلك الزلّة،
خرجتْ أجيالٌ لا تُحصى،
فيها النبيُّ والصالح،
وفيها العالمُ والجاهل،
وفيها العادلُ والظالم،
وفيها قلبٌ يسبّح،
وقلبٌ يتيه.

وهكذا دارتْ عجلةُ الحياة.

في الأرضِ خيرٌ وشرّ،
نورٌ وظلّ،
حقٌّ وباطل،
قربٌ وبُعد،
طباقٌ يعلّمنا
أن الأشياءَ تُعرَفُ بأضدادها.

ولذلك أرسلَ اللهُ الرسل،
كتابًا بعد كتاب،
ونورًا بعد نور،
يدعونَ إلى الخير،
ويوقظونَ الضمير،
ويرفعونَ عن الأرواحِ غبارَ الغفلة.

وقالوا للناس:

ازرعوا المعروفَ،
فإن الحصادَ من جنسِ البذار.

وازرعوا الرحمةَ،
فالقلوبُ لا تُفتَحُ بالمطارق،
بل بالمفاتيح.

أما إبليسُ...
فما زال يعملُ ساعاتٍ إضافية،

ولا يطلبُ راتبًا،
ولا يأخذُ إجازةً سنوية!

يأتيك في ثوبِ ناصح،
ثم يتركُك تدفعُ الفاتورةَ وحدك.

يزيّنُ الخطأ،
ثم يختفي عند الحساب،
كذلك الصديقُ المزيّف،
يصنعُ المشكلة،
ثم يرسلُ لك رسالةً يقول فيها:
"الله يعينك"!

ويهمسُ للإنسان:

غدًا تتوب.

وغدًا... عنده أطولُ من عمرِ الدنيا!

يا لهذا الماكر!
لا يملُّ من الوعد،
ولا يخجلُ من الكذب،
ولا يكلُّ من التزيين.

لكن المؤمنَ إذا سقط،
قام.

وإذا أخطأ،
استغفر.

وإذا بكى،
تبسّمَ رجاءً في رحمةِ مولاه.

ذلك هو الفرقُ العظيم:

إبليسُ أصرَّ،
وآدمُ اعتذر.

إبليسُ تكبّر،
وآدمُ استغفر.

إبليسُ أغلقَ بابَه،
وآدمُ طرقَ بابَ ربّه.

ومن هنا بدأتْ الحكاية،
لا حكايةُ السقوط،
بل حكايةُ النهوض.

فالأرضُ ليستْ عقوبةً خالصة،
ولا الجنةُ حلمًا بعيدًا،
بل هذه الدنيا طريقٌ بين منزلتين،
يمرُّ فيه الإنسانُ بخوفٍ ورجاء،
وبعسرٍ ويسر،
وبدمعةٍ وبشرى.

فيا ابنَ آدم،

لا تجعلْ زلّةً واحدةً
تحكمُ على العمرِ كلِّه،
ولا تجعلْ نجاحًا واحدًا
يملأ قلبَك كِبرًا.

امشِ إلى الله بقلبٍ سليم،
فإن تعثّرتَ، فقم،
وإن ضعفتَ، فاستعن،
وإن أخطأتَ، فاستغفر.

فالرحمةُ أوسعُ من الذنب،
والعفوُ أكبرُ من الخطيئة،
والفضلُ أسبقُ من العقوبة.

ولترَ كلُّ نفسٍ
ما قدّمتْ يداها،
فما يزرعه القلبُ اليوم،
تحصده الروحُ غدًا.

فطوبى لمن جعلَ التقوى رفيقَه،
والصدقَ طريقَه،
والرحمةَ خُلُقَه،
والتوبةَ زادَه.

فالخاتمةُ ليستْ لأولِ الطريق،
بل لآخرِ الخُطا،
ومن صدقَ مع الله،
بلّغه اللهُ حيثُ يحب،
وجعلَ بعد كلِّ عسرٍ يُسرًا،
وبعد كلِّ ليلٍ فجرًا،
وبعد كلِّ دمعةٍ بشرى،
وهو سبحانه خيرُ الحاكمين.

خواطر في التصوف

طريق القلبُ لمصالحة السماء

يا نفسُ...
ما بالُكِ ترتجفين كلما مرَّ نسيمُ العمر،
وكأنَّ الليلَ لا يعرف فجراً،
وكأنَّ الرحمةَ بابٌ أُغلِق، والمغفرةُ طريقٌ انقطع؟

رويدكِ...
فما خُلِق القلبُ ليغرق في الخوف،
ولا زُرعت الروحُ إلا لتُزهر بالأمل.
بين الخشية والرجاء
حديقةٌ لا يعرف عطرها إلا من صدق في السير.

يا نفسُ،
إن بي عليكِ قلقاً يوقظ الليل في عيني،
وخشيةً تهمس في أعماق صدري،
لا خوفاً من ربٍّ يترصّد الزلات،
بل هيبةً من عدله،
وشوقاً إلى رحمته،
فالعدلُ جلال،
والرحمةُ جمال،
وربُّنا جمع الجلالَ والجمال.

رحم الله عباده جميعاً،
وفتح أبواب فضله لكل من طرقها بقلبٍ منكسر،
فلا يسبقُ إلى الكرامة نسب،
ولا يرفعُ الإنسانَ لقب،
إنما يرفعه قلبٌ عرف الطريق،
وعقلٌ أدرك الحقيقة،
وعملٌ صادقٌ لا يعرف الرياء.

أما الأرعن،
فيحسب أن الطريق قصير،
وأن الجنة تُشترى بالأماني،
ويبتسم للذنوب كأنها نكات،
ثم إذا حضر الحساب قال:
"يا ليت"!
وما أكثر "ليت" حين يفوت الأوان،
وما أقل العمل حين يكون الزمان ميداناً.

يا نفس،
إن أردتِ النجاة،
فلا تبحثي عنها في ضجيج الناس،
ولا في مدح المادحين،
ولا في تصفيق العابرين،
فالضجيج يعلو ثم يخبو،

والتصفيق يدوي ثم ينسى،
أما العمل الصالح،
فهمسةٌ في الأرض،
وصداها في السماء.

هاتي وسائل النجاة:
توبةً صادقة،
وقلباً خاشعاً،
ودمعاً صامتاً،
وابتسامةً تُهدى لعباد الله،
وكلمةً طيبةً إذا خرجت من القلب
استقرت في القلب.

جاهدي الهوى،
فالهوى يَعِدُ ولا يَفي،
ويُغري ولا يُغني،
ويضحك حتى إذا اطمأن المرء،
تركه وحيداً بين الحسرة والندامة.

لا تيأسي يا نفس،
فاليأسُ غبارٌ على نافذة الرجاء،
وما إن تهبَّ نسمةُ الإيمان
حتى يعود الزجاج صافياً،
ويرى القلبُ النور كما يراه الطفل لأول مرة.

الله الذي سوّى أمرك،
يعلم كسرك قبل شكواك،
ويعلم دمعتك قبل نزولها،
ويكتب فرجك قبل أن يولد حزنك،
فكيف تيأسين
وربُّ الأقدار أرحم بك من نفسك؟

ويا من أطلق لسانه في الحرام،
رويدك...
فاللسان قطعةُ لحم،

لكنه قد يهدم جبالاً من الحسنات.
كم كلمةٍ خرجت ضاحكة،
فعادت على صاحبها باكية!
وكم عبارةٍ ظنها صاحبها خفيفة،
فكانت في الميزان ثقيلة!

ويا من جعل عينيه سفينتين
تبحران في كل شاطئ،
أما علمت أن النظر سهم،
وأن السهم إذا خرج
عاد بجراح لا تُرى،
لكنها تؤلم القلب طويلاً؟

ويا من جعل أذنه سوقاً لكل قيلٍ وقال،
أما سئمت من جمع الغبار؟
دع عنك أخبار الناس،
وابحث عن خبر قلبك،
فهو أولى بالمتابعة،
وأحقُّ بالإصلاح.

ثم اعمل لدنياك،
فالدين لا يخاصم الحياة،
ولا يعادي الكسب،
بل يبارك اليد التي تعمل،
ويحب الجبين الذي يتصبب عرقاً بالحلال.

ازرع،
وابنِ،
وتعلّم،
وأتقن،
وأوفِ بالعهد،
وأخلص في الصنعة،
فالله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يحسنه.

لكن...
لا تجعل الدنيا تسكن قلبك،
بل اجعلها في يدك.
فاليدُ تحمل،
أما القلبُ فينبغي أن يحمل الله.

ما أعجب الإنسان!
يجري خلف درهمٍ هارب،
وينسى أن العمر هو الهارب الحقيقي.

يجمع المال،
ثم يجمع الهم،
ثم يجمع الأطباء،
ثم يكتشف أن الصحة كانت أغنى من الذهب!

ويعدّ سنواته على أصابعه،
ثم ينسى أن أنفاسه تُعدّ عليه،
لا له.

يا لها من مفارقةٍ ساخرة!
يخشى نفاد رصيد الهاتف،
ولا يخشى نفاد رصيد الحسنات.
ويغضب إذا تأخر عليه طلب الطعام دقائق،
ولا يحزن إذا تأخر عن صلاة الفجر أعواماً!

ويفتش عن كلمة السر لكل جهاز،
لكنه ينسى أن مفتاح القلب:
"أستغفر الله".

ويُكثر تحديث هاتفه،
ولا يحدّث روحه إلا نادراً.
فيا للعجب!
بطارية الهاتف إذا ضعفت أسرع إلى شحنها،
أما القلب إذا خبا نوره،

قال: غداً...
وغداً من أكثر الكلمات خداعاً.

أنِسْ بربك،
فالأنس به وطنٌ لا تغادره الوحشة،
وبستانٌ لا تذبل أزهاره،
وبحرٌ كلما غصت فيه
خرجت بلؤلؤة جديدة.

اقرأ كلامه،
لا بعين اللفظ وحدها،
بل بعين القلب أيضاً،
فكم من قارئٍ للحروف،
وقليلٌ من قرّاء النور.

إذا خاطبك القرآن،
فلا تقل:
لمن هذه الآية؟
بل قل:
هذه رسالتي اليوم.

واعمل قبل أن يقول الندم:
ليتني.
فإن "ليت"
لا تبني جسراً،
ولا تعيد عمراً،
ولا تفتح باباً أُغلق.

اليوم عملٌ بلا حساب،
وغداً حسابٌ بلا عمل.
تلك هي الحقيقة
التي لا تحتاج إلى برهان.

ثق بالنور،
فالنور لا يخون سالكه،

وثق بالله،
فمن وثق به
لم يضع.

سر إليه،
ولو بخطوة،
فسيفتح لك أبواباً من رحمته،
لم تكن تظن أنها موجودة.

وإذا تعبت،
فاسترح عند الدعاء،
فهو وسادة الأرواح،
ومرسى القلوب،
ولغة العاشقين إلى الله.

هناك...
حيث يسكن الضجيج،
وتتكلم الدموع،
ويصير الصمت أبلغ من الكلام،
تعرف أن التصوف ليس ثوباً من صوف،
ولا لفظاً غريباً،
ولا عزلةً عن الحياة،
بل هو قلبٌ يحب الله حتى يرى أثره في كل شيء:
في ابتسامة طفل،
وفي جناح طائر،
وفي قطرة مطر،
وفي دمعة تائب،
وفي يدٍ تمتد بالخير.

ومن ذاق هذا الحب،
هانت عليه الدنيا،
لا لأنه كرهها،
بل لأنه عرف حجمها الحقيقي.

فيا نفس،
إذا ضاق بك الطريق،
فارفعي رأسك إلى السماء،
فكل الطرق تنتهي إلى باب،
إلا طريق الله،
فإنه يبدأ بالباب،
ولا ينتهي.

سلامٌ على قلبٍ إذا أذنب استغفر،
وإذا أُنعِم عليه شكر،
وإذا ابتُلي صبر،
وإذا أحبَّ أحبَّ لله.

وسلامٌ على روحٍ عرفت أن أجمل رحلةٍ
ليست إلى مدينة،
ولا إلى بحر،
ولا إلى قصر،
بل إلى الله...
فمن وصل إليه،
وجد نفسه،
ووجد الطمأنينة،
ووجد الحياة التي لا يذبل ربيعها،
ولا يغيب نورها،
ولا ينطفئ فيها الأمل.

خواطر في التصوف
طريق القلبُ لمصالحة السماء

يا نفسُ...
ما بالُكِ ترتجفين كلما مرَّ نسيمُ العمر،
وكأنَّ الليلَ لا يعرف فجراً،
وكأنَّ الرحمةَ بابٌ أُغلِق، والمغفرةُ طريقٌ انقطع؟

رويدكِ...
فما خُلِق القلبُ ليغرق في الخوف،

ولا زُرعت الروحُ إلا لتُزهر بالأمل.
بين الخشية والرجاء
حديقةٌ لا يعرف عطرها إلا من صدق في السير.

يا نفسُ،
إن بي عليكِ قلقاً يوقظ الليل في عيني،
وخشيةً تهمس في أعماق صدري،
لا خوفاً من ربٍّ يترصّد الزلات،
بل هيبةً من عدله،
وشوقاً إلى رحمته،
فالعدلُ جلال،
والرحمةُ جمال،
وربُّنا جمع الجلالَ والجمال.

رحم الله عباده جميعاً،
وفتح أبواب فضله لكل من طرقها بقلبٍ منكسر،
فلا يسبقُ إلى الكرامة نسب،
ولا يرفعُ الإنسانَ لقب،
إنما يرفعه قلبٌ عرف الطريق،
وعقلٌ أدرك الحقيقة،
وعملٌ صادقٌ لا يعرف الرياء.

أما الأرعن،
فيحسب أن الطريق قصير،
وأن الجنة تُشترى بالأماني،
ويبتسم للذنوب كأنها نكات،
ثم إذا حضر الحساب قال:
"يا ليت"!
وما أكثر "ليت" حين يفوت الأوان،
وما أقل العمل حين يكون الزمان ميداناً.

يا نفس،
إن أردتِ النجاة،
فلا تبحثي عنها في ضجيج الناس،

ولا في مدح المادحين،
ولا في تصفيق العابرين،
فالضجيج يعلو ثم يخبو،
والتصفيق يدوي ثم ينسى،
أما العمل الصالح،
فهمسةٌ في الأرض،
وصداها في السماء.

هاتي وسائل النجاة:
توبةً صادقة،
وقلباً خاشعاً،
ودمعاً صامتاً،
وابتسامةً تُهدى لعباد الله،
وكلمةً طيبةً إذا خرجت من القلب
استقرت في القلب.

جاهدي الهوى،
فالهوى يَعِدُ ولا يَفي،
ويُغري ولا يُغني،
ويضحك حتى إذا اطمأن المرء،
تركه وحيداً بين الحسرة والندامة.

لا تيأسي يا نفس،
فاليأسُ غبارٌ على نافذة الرجاء،
وما إن تهبَّ نسمةُ الإيمان
حتى يعود الزجاج صافياً،
ويرى القلبُ النور كما يراه الطفل لأول مرة.

الله الذي سوّى أمرك،
يعلم كسرك قبل شكواك،
ويعلم دمعتك قبل نزولها،
ويكتب فرجك قبل أن يولد حزنك،
فكيف تيأسين
وربُّ الأقدار أرحم بك من نفسك؟

ويا من أطلق لسانه في الحرام،
رويدك...
فاللسان قطعةُ لحم،
لكنه قد يهدم جبالاً من الحسنات.
كم كلمةٍ خرجت ضاحكة،
فعادت على صاحبها باكية!
وكم عبارةٍ ظنها صاحبها خفيفة،
فكانت في الميزان ثقيلة!

ويا من جعل عينيه سفينتين
تبحران في كل شاطئ،
أما علمت أن النظر سهم،
وأن السهم إذا خرج
عاد بجراحٍ لا تُرى،
لكنها تؤلم القلب طويلاً؟

ويا من جعل أذنه سوقاً لكل قيلٍ وقال،
أما سئمت من جمع الغبار؟
دع عنك أخبار الناس،
وابحث عن خبر قلبك،
فهو أولى بالمتابعة،
وأحقُّ بالإصلاح.

ثم اعمل لدنياك،
فالدين لا يخاصم الحياة،
ولا يعادي الكسب،
بل يبارك اليد التي تعمل،
ويحب الجبين الذي يتصبب عرقاً بالحلال.

ازرع،
وابنِ،
وتعلَّم،
وأتقن،
وأوفِ بالعهد،

وأخلص في الصنعة،
فالله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يحسنه.

لكن...
لا تجعل الدنيا تسكن قلبك،
بل اجعلها في يدك.
فاليدُ تحمل،
أما القلبُ فينبغي أن يحمل الله.

ما أعجب الإنسان!
يجري خلف درهمٍ هارب،
وينسى أن العمر هو الهارب الحقيقي.

يجمع المال،
ثم يجمع الهم،
ثم يجمع الأطباء،
ثم يكتشف أن الصحة كانت أغنى من الذهب!

ويعدّ سنواته على أصابعه،
ثم ينسى أن أنفاسه تُعدّ عليه،
لا له.

يا لها من مفارقةٍ ساخرة!
يخشى نفاد رصيد الهاتف،
ولا يخشى نفاد رصيد الحسنات.
ويغضب إذا تأخر عليه طلب الطعام دقائق،
ولا يحزن إذا تأخر عن صلاة الفجر أعواماً!

ويفتش عن كلمة السر لكل جهاز،
لكنه ينسى أن مفتاح القلب:
"أستغفر الله".

ويُكثر تحديث هاتفه،
ولا يحدّث روحه إلا نادراً.
فيا للعجب!
بطارية الهاتف إذا ضعفت أسرع إلى شحنها،

أما القلب إذا خبا نوره،
قال: غداً...
وغداً من أكثر الكلمات خداعاً.

أنِسْ بربك،
فالأنس به وطنٌ لا تغادره الوحشة،
وبستانٌ لا تذبل أزهاره،
وبحرٌ كلما غصت فيه
خرجت بلؤلؤة جديدة.

اقرأ كلامه،
لا بعين اللفظ وحدها،
بل بعين القلب أيضاً،
فكم من قارئٍ للحروف،
وقليلٌ من قرّاء النور.

إذا خاطبك القرآن،
فلا تقل:
لمن هذه الآية؟
بل قل:
هذه رسالتي اليوم.

واعمل قبل أن يقول الندم:
ليتني.
فإن "ليت"
لا تبني جسراً،
ولا تعيد عمراً،
ولا تفتح باباً أُغلق.

اليوم عملٌ بلا حساب،
وغداً حسابٌ بلا عمل.
تلك هي الحقيقة
التي لا تحتاج إلى برهان.

ثق بالنور،
فالنور لا يخون سالكه،
وثق بالله،
فمن وثق به
لم يضع.

سر إليه،
ولو بخطوة،
فسيفتح لك أبواباً من رحمته،
لم تكن تظن أنها موجودة.

وإذا تعبت،
فاسترح عند الدعاء،
فهو وسادة الأرواح،
ومرسى القلوب،
ولغة العاشقين إلى الله.

هناك...
حيث يسكن الضجيج،
وتتكلم الدموع،
ويصير الصمت أبلغ من الكلام،
تعرف أن التصوف ليس ثوباً من صوف،
ولا لفظاً غريباً،
ولا عزلةً عن الحياة،
بل هو قلبٌ يحب الله حتى يرى أثره في كل شيء:
في ابتسامة طفل،
وفي جناح طائر،
وفي قطرة مطر،
وفي دمعة تائب،
وفي يدٍ تمتد بالخير.

ومن ذاق هذا الحب،
هانت عليه الدنيا،

لا لأنه كرهها،
بل لأنه عرف حجمها الحقيقي.

فيا نفس،
إذا ضاق بك الطريق،
فارفعي رأسك إلى السماء،
فكل الطرق تنتهي إلى باب،
إلا طريق الله،
فإنه يبدأ بالباب،
ولا ينتهي.

سلامٌ على قلبٍ إذا أذنب استغفر،
وإذا أُنعِم عليه شكر،
وإذا ابتُلي صبر،
وإذا أحبَّ أحبَّ لله.

وسلامٌ على روحٍ عرفت أن أجمل رحلةٍ
ليست إلى مدينة،
ولا إلى بحر،
ولا إلى قصر،
بل إلى الله...
فمن وصل إليه،
وجد نفسه،
ووجد الطمأنينة،
ووجد الحياة التي لا يذبل ربيعها،
ولا يغيب نورها،
ولا ينطفئ فيها الأمل.

خواطر في التصوف

طريق القلبُ لمصالحة السماء

يا نفسُ...
ما بالُكِ ترتجفين كلما مرَّ نسيمُ العمر،
وكأنَّ الليلَ لا يعرف فجراً،
وكأنَّ الرحمةَ بابٌ أُغلِق، والمغفرةُ طريقٌ انقطع؟

رويدكِ...
فما خُلِق القلبُ ليغرق في الخوف،
ولا زُرعت الروحُ إلا لتُزهر بالأمل.
بين الخشية والرجاء
حديقةٌ لا يعرف عطرها إلا من صدق في السير.

يا نفسُ،
إن بي عليكِ قلقاً يوقظ الليل في عيني،
وخشيةً تهمس في أعماق صدري،
لا خوفاً من ربٍّ يترصّد الزلات،
بل هيبةً من عدله،
وشوقاً إلى رحمته،
فالعدلُ جلال،
والرحمةُ جمال،
وربُّنا جمع الجلالَ والجمال.

رحم الله عباده جميعاً،
وفتح أبواب فضله لكل من طرقها بقلبٍ منكسر،
فلا يسبقُ إلى الكرامة نسب،
ولا يرفعُ الإنسانَ لقب،
إنما يرفعه قلبٌ عرف الطريق،
وعقلٌ أدرك الحقيقة،
وعملٌ صادقٌ لا يعرف الرياء.

أما الأرعن،
فيحسب أن الطريق قصير،
وأن الجنة تُشترى بالأماني،
ويبتسم للذنوب كأنها نكات،
ثم إذا حضر الحساب قال:
"يا ليت"!
وما أكثر "ليت" حين يفوت الأوان،
وما أقل العمل حين يكون الزمان ميداناً.

يا نفس،
إن أردتِ النجاة،
فلا تبحثي عنها في ضجيج الناس،
ولا في مدح المادحين،
ولا في تصفيق العابرين،
فالضجيج يعلو ثم يخبو،
والتصفيق يدوي ثم ينسى،
أما العمل الصالح،
فهمسةٌ في الأرض،
وصداها في السماء.

هاتي وسائل النجاة:
توبةً صادقة،
وقلباً خاشعاً،
ودمعاً صامتاً،
وابتسامةً تُهدى لعباد الله،
وكلمةً طيبةً إذا خرجت من القلب
استقرت في القلب.

جاهدي الهوى،
فالهوى يَعِدُ ولا يَفي،
ويُغري ولا يُغني،
ويضحك حتى إذا اطمأن المرء،
تركه وحيداً بين الحسرة والندامة.

لا تيأسي يا نفس،
فاليأسُ غبارٌ على نافذة الرجاء،
وما إن تهبَّ نسمةُ الإيمان
حتى يعود الزجاج صافياً،
ويرى القلبُ النور كما يراه الطفل لأول مرة.

الله الذي سوّى أمرك،
يعلم كسرك قبل شكواك،
ويعلم دمعتك قبل نزولها،

ويكتب فرجك قبل أن يولد حزنك،
فكيف تيأسين
وربُّ الأقدار أرحم بك من نفسك؟

ويا من أطلق لسانه في الحرام،
رويدك...
فاللسان قطعةُ لحمٍ،
لكنه قد يهدم جبالاً من الحسنات.
كم كلمةٍ خرجت ضاحكة،
فعادت على صاحبها باكية!
وكم عبارةٍ ظنها صاحبها خفيفة،
فكانت في الميزان ثقيلة!

ويا من جعل عينيه سفينتين
تبحران في كل شاطئ،
أما علمت أن النظر سهم،
وأن السهم إذا خرج
عاد بجراحٍ لا تُرى،
لكنها تؤلم القلب طويلاً؟

ويا من جعل أذنه سوقاً لكل قيلٍ وقال،
أما سئمت من جمع الغبار؟
دع عنك أخبار الناس،
وابحث عن خبر قلبك،
فهو أولى بالمتابعة،
وأحقُّ بالإصلاح.

ثم اعمل لدنياك،
فالدين لا يخاصم الحياة،
ولا يعادي الكسب،
بل يبارك اليد التي تعمل،
ويحب الجبين الذي يتصبب عرقاً بالحلال.

ازرع،
وابنِ،

وتعلّم،
وأتقن،
وأوفِ بالعهد،
وأخلص في الصنعة،
فالله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يحسنه.

لكن...
لا تجعل الدنيا تسكن قلبك،
بل اجعلها في يدك.
فاليدُ تحمل،
أما القلبُ فينبغي أن يحمل الله.

ما أعجب الإنسان!
يجري خلف درهمٍ هارب،
وينسى أن العمر هو الهارب الحقيقي.

يجمع المال،
ثم يجمع الهم،
ثم يجمع الأطباء،
ثم يكتشف أن الصحة كانت أغنى من الذهب!

ويعدّ سنواته على أصابعه،
ثم ينسى أن أنفاسه تُعدّ عليه،
لا له.

يا لها من مفارقةٍ ساخرة!
يخشى نفاد رصيد الهاتف،
ولا يخشى نفاد رصيد الحسنات.
ويغضب إذا تأخر عليه طلب الطعام دقائق،
ولا يحزن إذا تأخر عن صلاة الفجر أعواماً!

ويفتش عن كلمة السر لكل جهاز،
لكنه ينسى أن مفتاح القلب:
"أستغفر الله".

ويُكثر تحديث هاتفه،
ولا يحدّث روحه إلا نادراً.
فيا للعجب!
بطارية الهاتف إذا ضعفت أسرع إلى شحنها،
أما القلب إذا خبا نوره،
قال: غداً...
وغداً من أكثر الكلمات خداعاً.

أنِسْ بربك،
فالأنس به وطنٌ لا تغادره الوحشة،
وبستانٌ لا تذبل أزهاره،
وبحرٌ كلما غصت فيه
خرجت بلؤلؤة جديدة.

اقرأ كلامه،
لا بعين اللفظ وحدها،
بل بعين القلب أيضاً،
فكم من قارئٍ للحروف،
وقليلٌ من قرّاء النور.

إذا خاطبك القرآن،
فلا تقل:
لمن هذه الآية؟
بل قل:
هذه رسالتي اليوم.

واعمل قبل أن يقول الندم:
ليتني.
فإن "ليت"
لا تبني جسراً،
ولا تعيد عمراً،
ولا تفتح باباً أُغلق.

اليوم عملٌ بلا حساب،
وغداً حسابٌ بلا عمل.

تلك هي الحقيقة
التي لا تحتاج إلى برهان.

ثق بالنور،
فالنور لا يخون سالكه،
وثق بالله،
فمن وثق به
لم يضع.

سر إليه،
ولو بخطوة،
فسيفتح لك أبواباً من رحمته،
لم تكن تظن أنها موجودة.

وإذا تعبت،
فاسترح عند الدعاء،
فهو وسادة الأرواح،
ومرسى القلوب،
ولغة العاشقين إلى الله.

هناك...
حيث يسكن الضجيج،
وتتكلم الدموع،
ويصير الصمت أبلغ من الكلام،
تعرف أن التصوف ليس ثوباً من صوف،
ولا لفظاً غريباً،
ولا عزلةً عن الحياة،
بل هو قلبٌ يحب الله حتى يرى أثره في كل شيء:
في ابتسامة طفل،
وفي جناح طائر،
وفي قطرة مطر،
وفي دمعة تائب،
وفي يدٍ تمتد بالخير.

ومن ذاق هذا الحب،
هانت عليه الدنيا،
لا لأنه كرهها،
بل لأنه عرف حجمها الحقيقي.

فيا نفس،
إذا ضاق بك الطريق،
فارفعي رأسك إلى السماء،
فكل الطرق تنتهي إلى باب،
إلا طريق الله،
فإنه يبدأ بالباب،
ولا ينتهي.

سلامٌ على قلبٍ إذا أذنب استغفر،
وإذا أُنعِم عليه شكر،
وإذا ابتُلي صبر،
وإذا أحبَّ أحبَّ لله.

وسلامٌ على روحٍ عرفت أن أجمل رحلةٍ
ليست إلى مدينة،
ولا إلى بحر،
ولا إلى قصر،
بل إلى الله...
فمن وصل إليه،
وجد نفسه،
ووجد الطمأنينة،
ووجد الحياة التي لا يذبل ربيعها،
ولا يغيب نورها،
ولا ينطفئ فيها الأمل.

المرآة الكاذبة

حين يبتسم الزجاج ويكذب القلب

مرآتي...
لا تعرف الصدق إلا إذا غاب وجهي،
ولا تنطق بالحقيقة إلا إذا أطفأتُ الضوء.

كلما وقفتُ أمامها،
رفعتْ رايةَ المجاملة،
وأعلنتْ انقلابًا على الواقع،
حتى خُيِّل إليَّ أن الزجاج شاعر،
وأن الكذب عنده فنٌّ راقٍ،
لا ذنبٌ يُدان.

تُريني وجهي...
ثم تُبدّل الملامح في غفلةٍ من العيون،
فتجعل من التجاعيد تموّجاتِ حرير،
ومن التعب وسامًا،
ومن السنين زينةً لا تُرى إلا بعين الوهم.

وإذا وقفتْ أمامها امرأة،
ارتدتِ المرآةُ ثوبَ المبالغة،
ونثرتْ على الزجاج مسحوقَ الأساطير،
فإذا بها ليست امرأةً من طينٍ وماء،
بل حفيدةُ الجمال الأول،
وشقيقةُ الضوء،
وابنةُ الربيع.

ترسمها في هيئة أفروديت،
وقد استعار البحرُ من خطاها زرقتَه،
واستعار القمرُ من جبينها ضياءه،
ثم تُرسل حولها ابنَها المدلّل،
ذلك الصبيَّ المشاغب،
الذي لا يعرف من الرماية إلا إصابة القلوب،
ولا يفرّق بين عاشقٍ وزاهد،
ولا بين حكيمٍ وساذج.

سهامُه...
طائشةٌ في الظاهر،
لكنها تُصيب بدقةٍ عجيبة،

فلا تُخطئ قلبًا مطمئنًا،
ولا تترك عقلًا إلا وتُعلن عليه حالةَ الطوارئ.

ثم تُخرج المرآة من خزائن الوهم
كليوباترا،
وقد تركت تاجها قليلًا،
وطوت سجادةَ العرش،
وجاءت تُلقي درسًا جديدًا
في فنِّ احتلال الممالك
دون جيش،
وفي فتح القلوب
دون سيف.

وتُطلُّ فينوس،
تمشي على أطراف الضوء،
كأن النسيمَ خادمُها،
وكأن الزهورَ بناتُ حاشيتها،
وكأن الفجرَ يتعلّم منها
كيف يبتسم قبل أن يولد النهار.

أما الحقيقة...

فتقف في زاوية الغرفة،
تسعل من كثرة الغبار،
وتنتظر دورها،
ولا أحد يدعوها إلى الحفل.

يا لهذه المرآة!

ما أكرمها حين تُبالغ،
وما أبخلها حين تصدق.

تُعطي الجميلةَ جمالًا فوق جمال،
حتى تظنَّ الشمسُ أنها منافسةٌ لها،
وتمنح العاديةَ تاجًا من الخيال،
فتغدو في عيني نفسها
إمبراطورةً لا ينازعها أحد.

وأنا...
كلما حاولتُ أن أعاتبها،
ابتسمتْ في وجهي،
وقالت بسخريةٍ رقيقة:

»أنا لا أكذب...
أنا فقط أُجيد التجميل،
وأترك للحياة مهمةَ التصحيح«!

فأضحك،
وأدرك أن الزجاج
أذكى من كثيرٍ من البشر؛
فهو يعرف أن الحقيقة إذا جاءت عاريةً
أغلقت القلوب أبوابها،
أما إذا جاءت مرتديةً ثوبًا من الحلم،
فتحت لها الأرواح نوافذها.

يا مرآتي...

كم بينك وبين الحقيقة
بُعدُ المشرق عن المغرب،
وكم بين الوهم واليقين
مسافةُ نظرةٍ واحدة!

أنتِ تُحسنين التلوين،
ولا تُحسنين التبيين،
وتُجيدين الزخرفة،
وتنسين المعرفة.

في حضرتك
يصير القبيح وسيماً،
والمتعبُ نشيطًا،
والشيخُ فتى،
والعابرُ أميرًا،
ويصبح الصمتُ غناءً،
والغبارُ عطرًا،

والخيالُ واقعًا،
والواقعُ خيالًا.

أيُّ سحرٍ هذا؟

أهو سجعُ الضوء حين يعانق الزجاج،
أم جناسُ الوجوه حين تتشابه وتختلف،
أم طباقُ الليل والنهار،
أم تضادُّ الحقيقة والسراب؟

كل شيءٍ عندك مقلوب،
فالناقص كامل،
والكامل ناقص،
والقريب بعيد،
والبعيد قريب.

حتى إنني بدأتُ أشكُّ
أنكِ تحملين شهادةً عليا
في فنِّ العلاقات العامة!

تمدحين الجميع،
ولا تغضبين أحدًا،
وتوزعين الألقاب كما يوزع الربيعُ أزهاره،
دون لجنة تحكيم،
ولا هيئة رقابة.

ولو دخل شاعرٌ عليك،
لخرج وهو يظن نفسه المتنبي،
ولو مرَّ رسام،
لأيقن أن ليوناردو دافنشي
كان أحدَ تلاميذه،
ولو وقف مغنٍّ لا يعرف من المقامات إلا أسماءها،
لخرج مقتنعًا
أن الطيورَ تغار من صوته!

ما أوسع خيالكِ،
وما أضيق ذاكرتكِ!

فأنتِ تنسين كل عيب،
وتحفظين كل حلم،
وتغسلين الوجوه بماء الأمنيات،
ثم تعطّرينها بعطر الأمن،
وتهمسين لكل واقفٍ أمامك:

»لا تقلق...
العالم أسوأ منك،
وأنت أجمل مما تظن«.

وهكذا...
يمضي الناس سعداء،
لا لأنهم وجدوا الحقيقة،
بل لأنهم وجدوا مرآةً
تجيد الكذب
بأدب،
وتُتقن المجاملة
بفن،
وتبيع الوهم
في علبةٍ أنيقة،
مكتوبٍ عليها:

"صورةٌ طبق الأصل... مع بعض التحسينات"!

ولعل أجمل ما فيكِ،
يا مرآتي الكاذبة،
أنكِ لا تكذبين بدافع الخداع،
بل بدافع الرحمة.

فبعض الحقائق
حادّةٌ كالسكين،
وبعض الأوهام
ناعمةٌ كالحرير.

وبين السكين والحرير
تختارين الحرير،
وبين القسوة والرقة

تنحازين للرقة،
وبين الجرح والابتسام
تزرعين ابتسامةً صغيرة،
تكفي ليبدأ الإنسان يومه
بقلبٍ أخف،
وأملٍ أكبر،
وحلمٍ لا يزال يرفض الاستسلام.

لذلك...
لن أكسر هذه المرآة.

سأتركها معلّقةً على الجدار،
تكذب قليلًا،
وتُضحكني كثيرًا،
وتذكرني كل صباح
أن الجمال ليس دائمًا ما نراه،
ولا الحقيقة دائمًا ما نقوله،
وأن بين الصورة والصيرة،
وبين الملامح والملامح،
وبين العين والعين،
أسرارًا لا يكشفها الزجاج،
ولا يفضحها الضوء.

فالمرآة...
ليست شاهدَ عدل،
بل شاعرةٌ عاشقة،
تعرف كيف تُجمّل القصيدة،
ولو خانتها القافية،
وكيف تُزيّن الوجوه،
ولو عاندها الزمن.

سلامٌ عليكِ،
أيتها الكاذبةُ الصادقة،
والصادقةُ الكاذبة،
يا أجملَ تناقضٍ يسكنُ جدارًا،
وألطفَ خدعةٍ

يرضى بها القلب،
ويصفق لها الخيال.

أينَ أملي و حلمي ؟
أنشودةُ قلبٍ تائهٍ بينَ الحلمِ والعدل

رحتُ أفتّشُ في دهاليزِ عقلي،
وأُصغي إلى صدى الأسئلةِ في أعماقي،
فهل يُدركُ العقلُ وحده
محنةَ كونٍ حيَّرتِ الحكماء،
وأرهقتِ الفلاسفةَ والشعراء؟
أأنا أسيرُ هذا الكون،
أم أنَّ الكونَ يسيرُ نحوي؟
أأنا الاسمُ في سجلِّ الأيام،
أم الأيامُ تكتبُ اسمي؟
وإذا كان لكلِّ قلبٍ نصيب،
ولكلِّ روحٍ حقٌّ وقريب،
فلماذا أقفُ عند أبوابِ العمر
مردِّداً في حيرةٍ وقلق:
فأجابني العقلُ،
بصوتٍ متردّدٍ بين الشكِّ والحذر،
وقال:
يا صاحبي،
إنَّ دروبَ البشر
مفروشةٌ بالأشواكِ قبل الزهر،
وإنَّ العدلَ الذي تنشده
غريبٌ في كثيرٍ من المواطن،
وحزينٌ في كثيرٍ من المحاضر.
تطلبُ ميزاناً مستقيماً،

وقانونُ الناسِ مائل،
وتسألُ عن الإنصاف،
وفي القلوبِ ألفُ جائر.
فإن وجدتَ عدلاً حقاً،
فقف أمامه،
واسأله بلسانِ المظلوم:
ليتني أوقظُ وعياً نامَ طويلاً
في جماجمَ أغلقتها العادة،
وأحرّرُ إنساناً مخدوعاً
من أنيابِ الوحشِ في ثوبِ السيادة.
ليتني أصونُ الدينَ الجميل
من أيدي الذين
زيّنوا الباطلَ بالقولِ الطويل،
وجعلوا من القداسةِ ستاراً،
ومن النورِ جداراً،
ومن الحقِّ أسيراً خلفَ الأسوار.
أناسٌ يقتلون الحقيقةَ نهاراً،
ثم يبكون عليها مساءً،
ويرفعون أكفَّ الضراعة،
وهم أولُ من أضاعَ الأمانة.
وكلُّما سقطَ حقٌّ على الطرقات،
سمعتُ صدى الأصوات:
حرّفوا المعنى،
وشوّهوا المبنى،

فصار الكتابُ الذي جاء هدايةً
مطيّةً للهوى والرغبات.
نسجوا من الدينِ شِباكاً
يصطادون بها البسطاء،
ويلبسون ثياباً
لم تُفصَّل لهم،
ولا خيطت على مقاسِ أرواحهم.
فإذا بالثوبِ المزيّف
ينشقُّ أمامَ البصائر،
وتنكشفُ سرائرُ السرائر.
ويخرجُ من بين شقوقه
صوتُ المقهورين:
ذلك ثوبُ العصبيّات،
وثمرةُ العنصريّات،
يسترُ الظاهرَ حيناً،
ويفضحُ الباطنَ أحياناً.
استعاره قومٌ
ليخفوا عيوبَ نفوسهم،
فإذا به يكشفُ ما حاولوا ستره،
ويُظهرُ ما سعوا إلى دفنه.
هناك أقليةٌ تملك،
وأكثريةٌ تئن،
هناك قصورٌ تلمع،
وأكواخٌ تنطفئ.

والتضادُّ بين الطرفين
كليلٍ ونهار،
وكغيثٍ ونار.
فتعلو الأصواتُ من كلِّ مكان:
كيف تشقى الجماهير،
وتزدادُ القلةُ ثراءً؟
كيف يزرعُ الفلاحُ الأرض،
ويحصدُ غيرُه الخضراء؟
كيف يتعبُ العاملُ حتى الغروب،
ثم يعودُ إلى أطفاله
بجيبٍ خاوٍ وقلبٍ كئيب؟
ملايينُ الوجوه
تحملُ آثارَ التعب،
وملايينُ الأرواح
تتوسّدُ القهرَ كلَّ ليلة.
والظلمُ راعٍ لا يرحم،
يسوقهم إلى الصمت،
فيهتفون من أعماقهم:
يا لقصورٍ ارتفعت
على أكتافِ الضعفاء،
ويا لثرواتٍ نمت
من عرقِ البؤساء.
هذه الجدرانُ المزيّنة،
لو نطقت،

لحدّثت عن دموعٍ مخفية،
وأعمارٍ منسية،
وأحلامٍ ذبلت قبل أوانها.
حتى الكؤوسُ المترفة،
لو سُئلت عمّا فيها،
لأجابت:
فيَّ شيءٌ من تعبِ الفقير،
وشيءٌ من دمعةِ الكسير.
وحينها يعودُ السؤال:
كم من حكيمٍ يسكنُ كوخاً صغيراً،
هو عند الله
أغلى من أميرٍ في قصرٍ كبير.
يقتاتُ من كسرةِ خبز،
ويشربُ من صبرٍ عذب،
ويقتسمُ مع الفجر
أحلاماً لا تنتهي.
بينما ينعمُ غيرُه بالترف،
وتُفتحُ له الأبواب،
ويُفرشُ له الحرير.
حتى كلبُ الشيخِ
ينالُ ما لا يناله الفقير،
فيعودُ الصدى الحزين:
وفتاةٌ لفّها الغبار،
وجعلتِ الريحُ عباءتَها،

تخدمُ الناسَ صباحاً ومساءً،
ولا تملكُ من الأرضِ موطئَ قدم.
تحملُ همومَ العمر
في قلبٍ صغير،
وتخفي الدموع
خلف ابتسامةٍ قصيرة.
تتمنى راحةً لا تجدها،
وسكينةً لا تراها،
حتى إذا ضمّها القبر،
سمعَ الترابُ همسَها الأخير:
وأنا...
أضعتُ عمري
أبحثُ عن معنى العدالة،
وأطاردُ سرابَ المساواة.
كلما ظننتُ أني اقتربتُ،
ابتعدَ الطريق،
وكلما لمستُ الضوء،
عانقني الحريق.
ورأيتُ الناسَ
يرجون عدلَ السماء،
لأن عدلَ الأرض
صار حلماً مؤجلاً.
لكنَّ السماءَ نفسها
تسألنا بصمتٍ بليغ:

ماذا صنعتم بالحق
حين كان بين أيديكم؟
يا ربّ،
كيف خُلقتُ وفي داخلي
هذا الجوعُ إلى الطمأنينة؟
كيف أتيتُ إلى الدنيا
وقلبي يفتّشُ عن مأواه،
وروحي تبحثُ عن معناها؟
أنا كسراجٍ في الدجى
ينتظرُ قطرةَ زيت،
وكزورقٍ في البحر
ينتظرُ نسمةَ نجاة.
أمضي،
وأتعثر،
وأقوم،
ثم أمضي من جديد.
وفي كلِّ منعطفٍ من العمر
يرافقني السؤالُ القديم:
فلا تلمني
إن أطلتُ العتاب،
ولا تؤاخذني
إن كثرتُ السؤال.
فالحائرُ إذا ضاقت به الطرق،
ناجى السماء،

والتائهُ إذا أرهقه الانتظار،
فتّش عن جواب.
وقد يكونُ الوهمُ وهماً،
والخيالُ خيالاً،
لكنَّ الألمَ حقيقة،
والحرمانَ حقيقة،
والقلبَ الذي ينشدُ العدل
حقيقةٌ أكبر.
لذلك سأبقى،
بين الرجاءِ والانكسار،
وبين الحلمِ والانتصار،
أردّدُ مع نبضِ الروح،
ومع أنينِ البشر،
ومع صمتِ الحجر:
أينَ أملي و حلمي ؟

تاجرُ الحُبِّ... والسِّعرُ الممنوع

ذهبتُ ذاتَ مساءٍ،
أجرُّ قلبي كما يجرُّ الغريبُ حقيبةً أثقلها الحنين،
وأحملُ في عينيَّ بقايا مواسمَ

أزهرتْ ثم ذبلت،
وضَحِكتْ ثم بكت،
ووعدتْ ثم مضت،
حتى انتهى بي الطريق
إلى **تاجرِ الحب**.

كان متجرُه عجيبًا؛
لا يبيعُ الوردَ،
ولا يشتري الدموع،
بل يزنُ القلوبَ
بميزانٍ لا يختلُّ،
ويقرأُ أسرارَها
قبل أن تنطقَ الشفاه.

سلَّمتُ عليه،
فابتسم ابتسامةً
فيها من السخريةِ
قدرُ ما فيها من الحكمة،
وقال:
مرحبًا...
ما الذي جاء بك
إلى سوقٍ
ارتفعتْ فيه أسعارُ الوفاءِ،
وانخفضتْ فيه قيمةُ العهود؟

قلتُ مبتسمًا،
وفي ابتسامتي
شيءٌ من الانكسار،
وشيءٌ من العناد:
جئتُ أبيعُ قلبي.

نظر إليَّ طويلًا،
ثم هزَّ رأسه،
وقال معتذرًا:

عذرًا...
لسنا نشتري
القلوبَ المخدوعة.

ضحكتُ،
وقلتُ ساخرًا:
وهل صار الخداعُ
عيبًا في زمنٍ
أصبح فيه الصادقُ غريبًا،
وأصبح الكاذبُ
نجمَ المجالس،
وأميرَ الحكايات؟

قال:
بل الخداعُ
ليس عيبَ القلب،
وإنما عيبُ من خان القلب،
غير أنَّ البضاعةَ
حين تتكسَّرُ مرارًا،
يخشى الناسُ
أن يلمسوها،
ولو كانت أثمنَ الجواهر.

قلتُ:
وما الذي أخبركَ
أن قلبي مخدوع؟

اقترب،
وتأمَّله كمن يقرأ
قصيدةً قديمة،
ثم قال:

لأنَّ عليه
عبارةً صغيرة،
لكنها أثقلُ من الجبال:

"ممنوعٌ للبيع".

قلتُ متعجبًا:
وما الممنوع؟

قال:
ممنوعٌ
أن يعشقَ
إلا امرأةً واحدة.

وممنوعٌ
أن ينسى
رائحةَ أولِ حلم.

وممنوعٌ
أن يستبدلَ
نبضًا بنبض،
ولا شوقًا بشوق،
ولا وجهًا بوجه.

قلتُ مبتسمًا:
وهل في الحبِّ
قوانينُ وحدود؟

قال:
بل في الحبِّ
كلُّ الحدودِ تُكسَر،
إلا حدودَ الوفاءِ،
فهي إن انكسرت،
صار القلبُ
بيتًا بلا أبواب،
وسفينةً بلا شراع.

قلتُ:
وهل يشتريه أحد؟

قال ضاحكًا،
وفي ضحكته
سجعٌ يسخر،
وحكمةٌ تزهر:

إن اشتراه أحد،
فلن يشتريكَ أنت،
بل سيشتري
حكايةً تسكنه،
وذكرى تؤرّقه،
وامرأةً
تسكنُ قلبَك
قبل أن تسكنَ بيتَها.

قلتُ:
وكيف يعشقُها
وهو لم يرها؟

قال:
وهل كلُّ عشقٍ
يحتاجُ عينًا؟

كم من عينٍ
رأتْ،
وما أحبَّت.

وكم من قلبٍ
أحبَّ،
وما رأى.

إنَّ القلوبَ
تبصرُ
حين تعمى العيون،
وتسمعُ
حين يصمتُ الكلام،

وتعرفُ
حين يحتارُ العقل.

ثم ابتسم،
وقال ساخرًا:

قل لي...
أيُّها العاشقُ النبيل،
أما زلتَ تبحثُ
عن علاجٍ للحب؟

قلتُ:
بل أبحثُ
عن نهايةٍ تليقُ
ببدايةٍ أوجعتني.

فضحك حتى كادتْ
رفوفُ متجره
تصفقُ له،
وقال:

يا صاحبي،
الحبُّ
ليس مرضًا
ليُشفى،
ولا تجارةً
لتُربح،
ولا مزادًا
لتربحَ أعلى الأسعار.

الحبُّ...
ورطةٌ جميلة،
ونعمةٌ ثقيلة،
وابتسامةٌ
تختبئُ خلف دمعة،

وضياءٌ
يولدُ من قلبِ العتمة.

ثم مال نحوي،
وقال همسًا:

أتعرفُ
ما أغربُ ما في العشاق؟

قلتُ:
ما هو؟

قال:

أنهم
كلما خسروا،
قالوا:
ربحنا التجربة.

وكلما بكتْ قلوبُهم،
قالوا:
كبرنا.

وكلما كسرتهم الحياة،
قالوا:
صرنا أقوى.

أما إذا عاد إليهم الحبُّ،
عادوا أطفالًا،
ينسون كلَّ الحكم،
ويصدقون أولَ وعد،
ويزرعون الوردَ
في أرضٍ
يعرفون أنها
قد تُنبتُ الأشواكَ.

قلتُ مبتسمًا:
إذن...
قلبي لا يُباع؟

قال:
بل يُهدى.

فالحبُّ
لا يعرفُ البيعَ والشراء،
ولا يفهمُ لغةَ السوق.

هو يعرفُ فقط
لغةَ النبض،
وحديثَ الشوق،
وأغنيةَ المطر.

ثم أشار إلى الباب،
وقال:

خذ قلبكَ معك،
فهو أغلى
من أن يُباع،
وأصدقُ
من أن يُساوَم،
وأوفى
من أن يُستبدل.

ولكن...
احذر.

قلتُ:
ممَّ أحذر؟

قال:

احذرْ
من تاجرٍ

يبيعُ الكلامَ
ويشتري الأحلام.

واحذرْ
من عاشقٍ
يقسمُ بالشمس،
ثم يختبئُ
إذا جاء النهار.

واحذرْ
من قلبٍ
يطرقُ بابكَ
ليستظلَّ بحبّك،
ثم يرحلُ
حين يزهرُ الربيع.

فبعضُ الناس
يجيدون صناعةَ الوهم،
كما يجيدُ البلبلُ صناعةَ اللحن،
لكنَّ اللحنَ يبقى،
والوهمَ يفنى.

خرجتُ
من متجرِ الحب،
وقلبي
ما زال في مكانه،
لكنَّه صار أخفَّ،
وكأنَّ الاعترافَ
أراحه،
وكأنَّ الحقيقةَ
داوته.

ابتسمتُ للطريق،
وقلتُ لنفسي
بشيءٍ من السخريةِ اللذيذة:

سبحانَ من جعل
القلوبَ تُكسَرُ
لتتعلم،
وتُخدعُ
لتفهم،
وتبكي
لتبتسم.

ومن جعل
أعجبَ تجارةٍ
في هذا العالم،
أن تخسرَ عقلَك،
فتربحَ قلبَك.

أما قلبي...
فما زال يحملُ
العبارةَ نفسها،
مزدانةً بصدقها،
مكللةً بوفائها،
كأنها وسامُ عشقٍ
لا يصدأُ ولا يبهت:

"ممنوعٌ أن يعشقَ سواها".

ولعلَّ أعجبَ ما في الأمر،
أنَّ من سيحمله بعدي،
إن حمله،
لن يحتاجَ إلى أن يراها،
فبعضُ الأرواحِ
إذا سكنتْ قلبًا،
أقامتْ فيه
إقامةَ الضوءِ في الفجر،
والعطرِ في الورد،
والنبضِ في الحياة.

وهكذا انتهتْ رحلتي
مع تاجرِ الحب،
لكنَّ الحكايةَ
لم تنتهِ؛
فالعاشقُ الصادقُ
لا يخسرُ قلبَه،
بل يكسبُ معنى الحياة،
وإن بدا للناس
أنه أكثرُهم خسارة.

وما بين البيعِ والشراء،
والربحِ والخسارة،
والوصلِ والهجر،
والضحكِ والبكاء،
يبقى القلبُ
أطرفَ شاعرٍ،
وأصدقَ كاذبٍ،
وأجملَ مجنونٍ،
يعلنُ في كلِّ صباح:

الحبُّ... ليس تجارةً،
بل قَدَرٌ،
ومن أحبَّ بصدقٍ،
ربحَ وإن خسر،
وعاشَ وإن انكسر.

الجمال الفِضّي

هذا الجمالُ الفِضّيُّ، يا حبيبتي،
ليس كغيره من الجمال؛
لا يجيء متأخرًا كي يعتذر،
ولا يهبط على القلب كخبرٍ عابرٍ في صحيفة الصباح،
بل يدخلُ كما يدخلُ القمرُ إلى نافذةٍ مفتوحة:
هادئًا، باردَ اللمعان،
ثم يترك في الروح أثرًا لا يزول.

إنه جمالٌ لا تاريخَ له،
كأنه خُلِقَ من أوّل نظرةٍ في العالم،
أو من أوّل ارتجافةٍ في صدر الماء
حين رأت السماءُ وجهها.

هو كاملٌ قبل أن يُسمَّى،
ومبكّرٌ قبل أن يُكتَشف،
ومضيءٌ قبل أن تلتفت إليه العيون.
ولو أنّ الجمالَ يحملُ فيما بعدُ
علامةً صغيرةً من زمنٍ أو ندبةً من انتظار،
لكانت له عاشقةٌ واحدة،
ثم عاشقٌ آخرُ يتبعها،
ثم صفٌّ طويلٌ من القلوب
تتدافعُ كأنها في سوقٍ على وشك الإغلاق.

لكن هذا الجمال، يا حبيبتي،
لا يساوم،
ولا يساير،
ولا يعلّقُ رداءه على مشجبِ الوقت.
إنه يقفُ بين الظهيرة والسرّ
مثل سيفٍ يلمع ولا يجرح،
ومثل نافذةٍ تفتح على ضحكةٍ بعيدة،
ومثل وردةٍ تعرفُ أنها وردة
فلا تحتاجُ إلى شاهدٍ ولا إلى شرح.

أمّا النهار،
فهو الخاسرُ دائمًا في حضرته؛
النهارُ يجيءُ كثيرَ الضجيج،
كثيرَ الغبار،
كثيرَ المواعيد التي لا تفي،
ثم يظنّ أنه سيأخذ نصيبه من القلب.
لكن القلب، يا عزيزتي،
ليس خزانةً للوقت،
ولا حقيبةً للرحلات الفاشلة؛
إنه يتبدّل حين يمرّ به الشبح،
ويتزيّن حين يمرّ به الضوء،
ويتعب حين يضطرُّ إلى إقناع العالم

بأن الحبَّ ليس وهمًا
وأن الندمَ ليس فلسفة.

في بعض الليالي،
أرى الزمنَ شحّاذًا مهذّبًا
يقف على الباب
ويطلب من العاشقين قليلاً من انتباههم،
أو فتاتًا من يقظتهم.
يدقُّ بعصاه على العتبة
ثم يبتسم ابتسامةً باردةً
كأنها ختمُ موظفٍ حكومي
يعرفُ أنه لا يعرف شيئًا.
ذلك الزمن، يا حبيبتي،
يريد أن يقيم في ما بين القبلتين،
وفي ما بين النظرتين،
وفي المسافة التي تُنشئها الدموع
حين تتردد بين السقوط والاعتراف.
لكن الحبَّ، حين يكون حبًّا حقًا،
لا يقبل أن يصبح سجينَ ساعة،
ولا أن يضعَ رأسه على وسادةِ العدّاد.

أيتها العزيزة،
رغم أن الليلة قد ولّت،
فإن حلمها لا يزال يزورني صباحًا
كما يزور المطرُ حجرًا قديمًا
فيذكّره ببرودةٍ كان يجهلها.
أحلمُ بغرفةٍ بعيدة،
غرفةٍ تشبه كهفًا أنيقًا
أو محطةً أخيرةً في طريقٍ حديديٍّ منسيّ،
غرفةٍ فيها أسرّةٌ كثيرة
كأنها شهاداتٌ على أسرارٍ لم تُكتب.
كنا هناك،
نضحك بخفّةٍ تخاف أن توقظ الحائط،

ونتهامسُ كأن الهمسَ نفسه
حارسٌ من حراس اللطف.
ولم تكن العتمةُ عدوّةً لنا؛
كانت تعلِّمُنا كيف نرى،
وكانت الأذرعُ الأخرى،
والوجوهُ الأخرى،
والظلالُ المتراصةُ في الزوايا،
مجردَ ديكورٍ لحكايةٍ واحدة:
أنني كنتُ سعيدًا بكِ
إلى الحدِّ الذي يجعلُ العالمَ حولنا
مجردَ هامشٍ مهذّب.

لكن السعادة، يا عزيزتي،
كائنٌ رقيقُ المخالب؛
تتظاهرُ بأنها طائرٌ
ثم تكتشفُ أنها على وشكِ الرحيل.
هكذا حدث:
انشقَّ الليلُ عن شكٍّ صغير،
عن سؤالٍ خبيثٍ،
عن خيطٍ من الريبة
كان يكبر في الصمت
مثل دودةٍ في تفاحةٍ جميلة.
لم أدرِ من دفنَ دورةَ الإثم،
ولا من أيّ بابٍ دخلتِ إلى حديقةِ التردد،
لكنني أعرفُ أن شيئًا ما
كُسرَ من دون صوت.
وأنكِ، في لحظةٍ ما،
انحنيتِ نحو حبٍّ آخر
كما ينحني الضوءُ نحو مرآة
فيكتشف أنه ليس وحده.

عندئذٍ خرجتُ
ولم أكن أملك في يدي

إلا ما يملكه الرجلُ حين ينهزم:
المظهرُ المتماسك،
والقلبُ الذي يتسوّل المعنى.
مضيتُ،
والمساءُ خلفي يصفّقُ ببطء
كأنّه لا يعرف إن كان يودّعني
أم يستهزئ بي.

وفي مساءٍ آخر،
كنتُ أسيرُ في شارعٍ طويلٍ
تغسله أضواءُ المتاجر
وتعكّرُه وجوهُ الناس المتعجلة.
كانت الأرصفةُ مزدحمةً
كحقولٍ من القمح في موسم الحصاد،
وكان النهرُ ممتلئًا حتى حافته
كأنه استيقظ لتوّه من حلمٍ مائيٍّ قديم.
هناك، من تحت قوسِ نفقٍ حديدي،
سمعتُ عاشقًا يغني.
لم يكن صوته جميلًا على طريقة الموسيقى المدرَّبة،
بل جميلًا على طريقة القلب
حين ينسى قواعده.
كان يعلن، كمن يلقي تحدّيًا في وجه الفناء:
أن الحبَّ لا نهاية له.
ضحكتُ من جرأته،
ثم خفتُ من صدقه؛
فالكلماتُ التي تُقال في العتمة
غالبًا ما تعرف أكثر مما نعرف.

قلتُ في سري:
سأحبكِ، يا عزيزتي،
حتى يلتقي المستحيلان
كما يلتقي البحرُ والنجمةُ في خيال طفل؛
حتى يتعلّم النهرُ أن يقفز،

وتتذكّر الجبالُ أنها كانت يومًا
تسوياتٍ بين الأرض والسماء؛
حتى تمشي الأسماكُ في الشوارع
كأنها مواطناتٌ من طبقةٍ أعلى من العادة؛
حتى يطوى المحيطُ على نفسه
مثل رسالةٍ قرر صاحبها
أن يكفّ عن الكذب.
سأحبكِ حتى يتعب العددُ من العدّ،
وتفقد السنونُ اسمَها،
ويصبح الغدُ مجردَ ظلٍّ لطيفٍ
يستأذن على الحافة.

لكن الزمن،
هذا اللصُّ المتأنق،
لا يطيقُ أن يرى وعدًا دون أن يجرّب سكينه عليه.
إنه يمرّ في القلوب
مرتديًا قفازاتٍ من ضباب،
ويتركُ على المقاعد آثارَ غيابه.
يحبُّ أن يذكّرنا، بسعالٍ خفيف،
أنه حاضرٌ حتى في القبلة،
وأنه يراقبنا من وراء الستارة
حين نظنُّ أن الحبَّ أعمى.
يا له من متطفلٍ ذكيّ!
حتى صمتُه يبدو كأنه قانون،
حتى عبوسه يبدو كأنه حكمة،
حتى خساراته الصغيرة
يقدّمها لنا على أنها عتبةُ النضج.

اغمسي يديكِ في الماء،
اغمسيهما حتى المعصم،
ثم انظري إلى الدوائرِ الراحلة
كيف تتسعُ ثم تذوب.
هناك، عند الحوضِ البسيط،

يفهم الإنسانُ أكثر مما يفهمه في الخطب؛
يفهم أن ما ضاع ليس دائمًا شيئًا واحدًا،
وأن ما بقي ليس دائمًا كافيًا،
وأن الوجوهَ التي نراها في المرآة
تخفي في الغالب وجوهًا أخرى
لم تتعلم بعدُ كيف تبكي.
انظري،
لا إلى الماء فقط،
بل إلى التعب الذي تحت عينيك،
إلى المدينة التي تسكنُ في حدقتك،
إلى النهر الذي يمرُّ في أوردتك
دون أن يستأذن.
ثمة شقٌّ في فنجان الشاي،
أعمقُ من الشقِّ نفسه،
وأطولُ من الرؤيا؛
منه تخرجُ أحيانًا طرقٌ إلى الموتى،
وأحيانًا طرقٌ إلى الأحلام،
وأحيانًا إلى حارةٍ خلفية
يبيع فيها الشحاذون
أشياءَ تشبه المستقبل
لكنها بلا ضمان.

وفي هذه المدينة،
كلُّ شيءٍ يتظاهرُ بأنه مرتب.
العاشقُ يرتب ربطةَ عنقه
ثم ينسى قلبه على الكرسي.
والتاجرُ يبتسم للفراغ
كأنه شريكٌ في الأرباح.
والشرطيُّ يمرُّ مهمومًا
كأنه حارسٌ لشمسٍ مستعارة.
والقانونُ، يا عزيزتي،
ذلك الاسمُ الكبيرُ الذي يلفّه الناسُ في قماشٍ مهذب،

يقولون عنه كلَّ شيء
حتى لا يقولوا الحقيقة.
يقول الشيوخُ: هو الحكمة.
ويقول الصغار: هو العصا.
ويقول القساوسة: هو النصُّ.
ويقول القضاة: هو القضاة.
ويقول الساسة: هو الدولة.
ويقول الجمهور: هو نحن.
ثم يبتسم الجميع
ابتسامةَ من يعرفُ أنه لا يعرف.

أما أنا،
فأعرفُ شيئًا واحدًا فقط:
أن القانونَ يشبه الحبَّ
في حيرته،
وفي عناده،
وفي عجزه عن أن يُلخَّص بكلمة.
لا يمشي مستقيمًا مثل خطِّ المدرسة،
بل ينعطفُ كأغنيةٍ لم تُنهَ بعد.
يُطلبُ منه العدلُ،
فيمنحنا أحيانًا قناعًا للعدل.
ويُطلبُ منه الاتساق،
فيمنحنا تناقضًا يبرّره المتخصصون.
وكلما حاولوا أن يشرحوه
صار أكثر غموضًا،
وكلما رفعوه فوق الرؤوس
سقط من جيوب الناس.

وفي الميناء،
نزل البحّارة إلى الشاطئ
من سفنهم المجوّفة
كأنهم خرجوا من بطن حوتٍ بلا حكاية.
كان بعضهم يبدو ساذجًا

كما تبدو اللوحاتُ الرديئةُ
في يد مقتنٍ غنيٍّ لا يفهم ما يشتري.
كانوا يحكون، يضحكون،
يحدقون في القصص المصوّرة،
ويصفقون لرياضةٍ لا تعرفهم،
كأنهم جاؤوا إلى هذه المدينة
لا ليعمروا العالم
بل ليختبروا مقدار الفراغ فيه.
ومع ذلك،
كانت سفنهم الراسية على الزرقة
تبدو جميلةً بشكلٍ استفزازي؛
جميلةً لأنها بلا مهمةٍ واضحة،
وبلا ضحيةٍ محددة،
وبلا إرادةٍ بشريةٍ تحوّل الحديدَ
إلى أداةٍ للذنب.
من دون الغرض،
يصبح الشكلُ أكثر براءة،
ومن دون النية،
تغدو الهندسةُ قصيدةً باردة.

هكذا هي الأشياء، يا عزيزتي:
تبدو عظيمةً حين لا نعرف لماذا وُجدت،
وتبدو هزيلةً حين نعرف كثيرًا.
والمدينةُ، بما فيها من أضواءَ وأبوابٍ مغلقة،
تعلّمنا مهارةً واحدة:
أن نُحسن التمثيل.
أن نمشي كما لو أننا نعرف الوجهة.
أن نضحك كما لو أن القلب لم يُكسر.
أن نحبّ كما لو أن الحبَّ لا يختبرنا.
لكن كلَّ تمثيلٍ، مهما بلغ من إتقان،
يترك في الأصابع رائحةً خفية،
وفي العينين خيطَ فضيحةٍ صغيرة.

أما أنتِ،
فكنتِ مثل نافذةٍ على حدِّ الحلم:
تدلّين على الداخل والخارج معًا،
وتجعلين كلَّ شيءٍ يبدو أهدأ مما هو عليه.
كنتِ تشرقين
لا لأنكِ أردتِ إضاءةَ الغرفة،
بل لأن الفجرَ فيكِ
كان يعرف طريقه.
وحين تضحكين،
يخفُّ على الجدران ثقلُ الطلاء،
وتلينُ على الكراسي فكرةُ الجلوس،
ويصبح الهواءُ، على غير عادته،
أقلَّ عدوانًا.

ومع هذا،
فإن الجمالَ—حتى الجمالُ الفضيُّ—
ليس طقسًا من طقوس الخلود.
إنه يلمع، نعم،
لكنه لا يعِدُ بالنجاة.
يعلّمنا فقط
أن نرى الأشياءَ قبل أن تنكسر،
وأن نحبَّها قبل أن تخونها المسافة،
وأن نفهم، بعد فواتٍ قليل،
أن اللحظةَ التي نظنها عابرة
هي التي تبني العمر كلَّه.
لهذا، حين أقول: أحبكِ،
فأنا لا أعني كلمةً عاطفيةً فحسب،
بل أعني مقاومةً هادئةً ضدّ التآكل،
وضدّ العادة،
وضدّ زحف الأيام وهي ترتدي قناع الألفة.

إنني أحبكِ
كما يحبُّ الندى صفحةَ الورقة

دون أن يدّعي امتلاكها،
وكما يحبُّ المسافرُ ضوءَ نافذةٍ في آخر الليل
دون أن يطلب الإقامة فيها،
وكما يحبُّ العشبُ أثرَ المطر
وهو يعرف أن الشمس ستأخذه بعد قليل.
أحبكِ
ببساطةٍ تظنها العيونُ سذاجة،
وبعمقٍ يظنه العقلُ تهوّرًا،
وبحنينٍ يظنه الأصدقاءُ ضعفًا،
لكنني أعلم:
أن البساطةَ أحيانًا
هي أرفعُ أشكال البلاغة،
وأن الصمتَ قد يكون أفصحَ من كلِّ الخطب،
وأن القلب، حين يصدق،
يصير أذكى من الفلاسفة
وأكثرَ مرحًا من الساخرين.

فدعينا، يا عزيزتي،
نتركُ للأيامِ حقَّها في المرور،
وللخساراتِ حقَّها في التعليق،
وللذكرياتِ حقَّها في أن تضحك علينا قليلًا.
دعينا نرأفُ بالمستحيل
كما نرأفُ بطائرٍ بلّلَه المطر،
ونغفرُ للزمنِ بعضَ جهله
لأنه، في النهاية،
لا يعرف كيف يُحسن الحبَّ.
أما نحن،
فنحاول.
نحاول أن نصنع من الفقدِ نافذة،
ومن النافذةِ أغنية،
ومن الأغنيةِ دليلًا صغيرًا

على أن الجمال—حتى حين يكون فضيًّا، باردًا، بعيدًا—
يظلّ قادرًا على أن يدفئ ما لم تعده النار.

حينَ أحبَّ القمرُ قلبًا فقيرًا

يمشي الفقيرُ...
وكأنَّ الطرقاتِ تعاهدتْ على أن تُثقِلَ خُطاه،
وكأنَّ الريحَ لا تعرفُ إلا أن تُبعثرَ أحلامَه،
وكأنَّ النهارَ إذا مرَّ بهِ
أدارَ وجهَهُ حياءً،
وأمَّا الليلُ...
فيجلسُ إلى جوارهِ صامتًا،
لا يملكُ سوى نجمةٍ يتيمةٍ
تُواسي قلبًا أتعبتهُ الحياة.

يمشي...
والأبوابُ قبلهُ تُغلَق،
لا لأنَّهُ أخطأ،
ولا لأنَّهُ أذنب،

بل لأنَّ جيبَهُ خفيف،
وفي هذا الزمانِ
صارَ الميزانُ يُوزَنُ بالنقود،
لا بالوجود،
وبالرصيدِ
لا بالرصيدِ من الخُلُقِ والودِّ.

أيُّ سخريةٍ هذه؟
إنَّ الناسَ يسألونَ عن عنوانِ محفظتك،
قبل أن يسألوا عن عنوانِ قلبك،
ويُصافحونَ الذهبَ بحرارة،
ثم يُصافحونَ الإنسانَ بأطرافِ الأصابع،
خشيةَ أن يُعديهم الفقرُ
كما تُعديهم الحُمّى!

ترى الفقيرَ...
مبغوضًا،
ولا يعرفُ أيَّ ذنبٍ اقترف،
ولا أيَّ بابٍ أغلق،
ولا أيَّ قلبٍ كسر.

يحملُ سلامًا،
فيُقابَلُ بجفاء،
ويزرعُ وردًا،
فيحصدُ شوكًا،
ويبتسمُ،
فتُفسِّرُ ابتسامتُهُ استهزاءً،
ويبكي،
فيقولون:
ما أكثرَ شكواه!

عجبًا!
إذا ضحكَ الغنيُّ
قالوا:
يا لهُ من رجلٍ لطيف!
وإذا ضحكَ الفقيرُ
قالوا:
ينسى حالَهُ سريعًا!

وإذا صمتَ الغنيُّ
قالوا:
وقارٌ وهيبة.
وإذا صمتَ الفقيرُ
قالوا:
كبرٌ وغرور.

فما أعدلَ هذا الميزان!
ميزانٌ يزنُ الجيوب،
ولا يزنُ القلوب،
ويعدُّ الدراهمَ،
ولا يعدُّ المكارم.

حتى الكلابُ...
وليتها كانتْ تعرفُ علمَ الاقتصاد!

إذا رأتْ صاحبَ الثروةِ،
هزَّتْ أذنابَها،
وتمايلتْ كأنَّها تُحيّي وزيرًا،
وراحتْ تُعلنُ الوفاءَ
قبل أن تعرفَ الاسم،
وقبل أن تشمَّ الرائحة،
فالرصيدُ عندها
أبلغُ من التعريف.

أمَّا إذا مرَّ فقيرٌ،
نبحتْ،
وكشَّرتْ،
ورفعتْ ضريبةَ الإزعاج،
كأنَّهُ المسؤولُ عن جوعِها،
أو السارقُ لعظامِها!

حتى الكلابُ،
يا للعجب،
تعلمتْ بروتوكولَ المجاملات،
وحفظتْ قواعدَ الانحناءِ أمامَ الثروة،
وأتقنتْ فنَّ النباحِ على أصحابِ الحاجة.

أيُّ مدرسةٍ خرَّجتْ هذه الكلاب؟
وأيُّ جامعةٍ منحتها شهادةً
في فنِّ التمييزِ الطبقي؟

إنَّهُ عالمٌ
صارَ فيهِ الذهبُ يتكلَّم،
وصارَ الإنسانُ يصمت.

الغنيُّ...
إذا تعثَّر،
قالوا:
حادثٌ عابر.

والفقيرُ...
إذا تعثَّر،

قالوا:
لأنَّهُ لا يُحسنُ المشي!

الغنيُّ إذا أخطأ،
بحثوا لهُ عن ألفِ عذر.

والفقيرُ إذا أصاب،
بحثوا لهُ عن ألفِ تُهمة.

يا لروعةِ هذا التضاد!
الغنيُّ تُغفرُ زلَّاتُه،
والفقيرُ تُضاعَفُ عثراتُه.

أهذا عدلٌ؟
أم أنَّ العدالةَ أيضًا
تبحثُ عن وظيفةٍ براتبٍ مرتفع؟

ومع ذلك...
يمشي الفقيرُ.

يحملُ قلبًا
أنقى من الماء،
وأدفأ من الشمس،
وأوسعَ من البحر،
لكنَّهُ لا يجدُ مَن يقرأُ لغةَ القلوب،
فالجميعُ مشغولونَ
بقراءةِ أرقامِ الحسابات.

يمشي،
ويزرعُ الأملَ
في أرضٍ يابسة،
ويبتسمُ
رغمَ أنَّ الدموعَ تحفظُ عنوانَ عينيه،
ويضحكُ
كي لا يفضحَ الحزنُ أسرارَه.

وربما...
إذا أحبَّ،
أحبَّ بصدقٍ لا يُشترى،
وإذا أعطى،
أعطى دونَ فاتورة،
ودونَ إيصال،
ودونَ إعلان.

فالفقرُ قد يُفرغُ الجيب،
لكنَّهُ لا يُفرغُ القلب.

وكم من غنيٍّ
يملكُ القصور،
ولا يملكُ سريرًا ينامُ عليهِ مطمئنًّا.

وكم من فقيرٍ
ينامُ على وسادةٍ بسيطة،
لكنَّهُ يحتضنُ راحةً
تعجزُ عن شرائِها خزائنُ الأرض.

يا قلبًا فقيرًا...
لا تحزنْ إذا أدارَ الناسُ وجوهَهم،
فالقمرُ لا يحتاجُ إلى تصفيقِ النجوم،
والوردةُ لا تستأذنُ الحدائقَ كي تفوح،
والنهرُ لا يسألُ الصحراءَ
هل يسمحُ لهُ بالجريان.

امضِ...
فربَّ ابتسامةٍ منك
تُحيي روحًا ذابلة،
وربَّ كلمةٍ طيبةٍ
تُسقطُ جدارًا من الكراهية،
وربَّ قلبٍ صادقٍ
يغلبُ ألفَ قصرٍ مزيَّنٍ بالرخام.

دعهم يعبدونَ الذهب،
وأنتَ اعبدِ الجمال،
دعهم يجمعونَ المال،
وأنتَ اجمعِ المحبة،
دعهم يطاردونَ المظاهر،
وأنتَ طاردِ الجواهر.

فالذهبُ يلمعُ تحتَ الشمس،
أمَّا القلبُ الصادقُ
فيضِيءُ حتى في العتمة.

ويا لسخريةِ الأقدار...
كم من غنيٍّ
تتباهى بهِ المجالس،
ثم يرحلُ
ولا يتركُ سوى أرقامٍ منسيَّة.

وكم من فقيرٍ
كانَ عابرًا في الطريق،
ثم صارَ دعاؤهُ
جسرًا تعبرُ عليهِ القلوب.

إنَّ الفقرَ ليسَ عيبًا،
بل العيبُ
أن يفتقرَ الإنسانُ إلى الرحمة.

وليسَ الغنى
في كثرةِ المال،
بل في كثرةِ الخصال.

فما أكثرَ مَن امتلأتْ خزائنُه،
وفرغتْ ضمائرُه،
وما أكثرَ مَن خفَّتْ يداه،
وامتلأ قلبُهُ نورًا وسلامًا.

وهكذا...
يبقى الفقيرُ يمشي،
وتبقى الطرقاتُ تمتحنُ صبرَه،
وتبقى الدنيا
تُجيدُ لعبةَ المفارقات،
لكنَّ السماءَ...
لا تخطئُ الحساب.

هناك،
حيثُ لا تُوزَنُ الأرواحُ بالذهب،
ولا تُقاسُ المحبةُ بالأرصدة،
ولا تُشترى الكرامةُ بالثمن،
يعرفُ كلُّ قلبٍ مكانَه،
ويعودُ لكلِّ إنسانٍ حقُّه.

فامشِ، أيُّها الفقيرُ،
ورأسُك مرفوع،
فإنَّ الكرامةَ تاجٌ
لا تصنعُهُ المصارف،
والمحبةَ وطنٌ
لا تشتريه الأسواق،
والإنسانيةَ قصيدةٌ
لا يُتقنُ إنشادَها
إلا أصحابُ القلوبِ البيضاء.

ولعلَّ أجملَ مفارقةٍ في هذه الحياة،
أنَّ الوردةَ لا تسألُ الغصنَ عن ثمنِ الماء،
ولا العصفورُ يُغنِّي لمن يملكُ الذهب،
ولا القمرُ يختارُ نوافذَ الأغنياءِ وحدهم،
بل يسكبُ ضياءَهُ على الجميع،
كأنَّهُ يهمسُ في أذنِ الدنيا:

»إنَّ قيمةَ الإنسانِ بما يحملُهُ في قلبِه،
لا بما يحملُهُ في جيبِه«.

فليضحكِ الساخرون،
وليُكثر المتكبّرونَ من مراياهم،
فالمرايا تُجمِّلُ الوجوه،
لكنَّها لا تُصلحُ القلوب،
والمالُ قد يشتري بيتًا،
لكنَّهُ لا يشتري دفءَ بيت،
وقد يشتري ساعةً،
لكنَّهُ لا يشتري لحظةَ حبٍّ صادقة،
وقد يشتري حشدًا من المصفِّقين،
لكنَّهُ لا يشتري قلبًا يُحبُّ بلا مقابل.

وهكذا يبقى القلبُ الصادقُ،
وإن كان فقيرًا،
أغنى من خزائنَ لا تعرفُ سوى صليلِ الذهب،
ويبقى الحبُّ النقيُّ،
وإن سكنَ كوخًا،
أفخمَ من قصرٍ خلا من الرحمة،
ويبقى الإنسانُ الكريمُ،
ولو سارَ حافيًا،
أرفعَ مقامًا من متكبّرٍ يمشي فوقَ بساطِ الحرير.

حينَ ودَّعتُ الديار... أزهرتْ في القلبِ ألفُ دار

أقولُ لحبيبتي ، والدَّمعُ ينسابُ هادئًا على وجنتي

كأنَّه جدولٌ صغيرٌ يعرفُ طريقَه إلى البحر:

رويدكِ...
لا تُثقلي الرحيلَ بالنواح،
ولا تُحمِّلي القلبَ ما لا يطيق،
فإنَّ الفراقَ بابٌ، وربَّ بابٍ يقودُ إلى اللقاء،
وإنَّ الغيابَ ليلٌ، وربَّ ليلٍ يُولدُ منه فجرٌ لا يغيب.

ذريني أمضي...
فالطريقُ وإن طال، يحملُ في آخره وعدًا جميلًا،
والسفرُ وإن أتعبَ الأقدام، يُنعشُ الأرواح،
وما خُلقتِ النجومُ لتبقى معلَّقةً في السماءِ عبثًا،
بل لتدلَّ الحائرين على الجهات،
وتُعلِّم القلوب أنَّ النورَ لا يخونُ السائرين.

إنَّ السائرَ نحو حلمه، وإن تعثَّر، يصل،
وإن تعب، ينهض،
وإن بكى، يبتسم.
أمَّا الذي ركنَ إلى الراحة، فقد نامت أحلامُه قبل أن تستيقظ،
وماتت أمانيه قبل أن تولد.
فالنجاحُ صبرٌ وثبات،
والبوارُ كسلٌ وموات،
وبينهما فرقٌ كالضياءِ والظلام،
وكالفجرِ والختام.

وفي قلبِ الليل،
حين سكنتِ الأصوات،
وغفتِ العيون،
وراحتِ الرياحُ ترتِّلُ أنشودتها بين الصخور،
رأيتُ نورًا يلوحُ من بعيد.
كان ضوءًا لا يشبهُ الأضواء،
كأنَّ الليلَ خلعَ عباءتَه السوداء،
وارتدى ثوبًا من الفجر،
فصار الظلامُ ضياء،

وصار اليأسُ رجاء،
وصار البعدُ لقاء.

تقدَّمتُ نحوه،
وكان القلبُ يسبقُ الخُطى،
حتى شعرتُ أنَّ النجومَ تبتسم،
وأنَّ السماءَ تفتحُ أبوابها للدعاءِ،
وأنَّ النسيمَ يحملُ إليَّ سلامًا من أرضٍ أحببتُها،
ومن وطنٍ ما غابَ عن القلبِ يومًا،
وإن غابَ عن العينِ أعوامًا.

ثم لمعَ برقٌ من صنعاء،
فارتجفَ القلبُ شوقًا،
ولامستْ روحي رائحةُ المطر،
ورأيتُ في ذلك الوميضِ صورةَ البيوت،
وأبوابَ الطين،
ونوافذَ الحب،
وأشجارَ البن،
وأغنياتِ المساءِ،
وأصواتَ الأمهاتِ وهنَّ يدعون لأبنائهنَّ بالسلامة.

يا لصنعاء...
كم تحملينَ في الحنينِ من حكاية،
وفي الحكايةِ من حياة،
وفي الحياةِ من محبة.
كلُّ حجرٍ فيكِ قصيدة،
وكلُّ زقاقٍ ذاكرة،
وكلُّ نافذةٍ تبتسمُ للقمر،
وكلُّ بابٍ يعرفُ اسمَ العائدين.

هناك...
تعلمتُ أنَّ الحبَّ ليس كلمة،
بل موقف،
وليس وعدًا،

بل وفاء،
وليس لقاءً دائمًا،
بل قلبٌ يبقى وفيًّا وإن باعدتْ بينه وبين أحبته المسافات.

وكيفَ أُقيمُ في صحراءٍ موحشة،
وأجعلُ الوحشةَ رفيقة،
والوحدةَ أنيسة،
والحياتِ جيرانًا،
والتنينَ مؤنسًا؟
إنَّ القلبَ خُلقَ ليألف،
لا ليخاف،
وليحب،
لا ليجفو،
وليزهر،
لا ليذبل.

لقد تعبتُ من صحبةِ الخوف،
ومن مجالسةِ القلق،
ومن مصافحةِ الصمت.
أريدُ وجهًا يبتسم،
وصوتًا يطمئن،
وقلبًا إذا اقتربتُ منه،
شعرتُ أنَّ الدنيا كلها تبتسم.

وحينُ يشرقُ ذلك الضوء،
تذوبُ في حضرته الظلمات،
وتتراجعُ الأشباح،
وتنكسرُ قيودُ الخوف،
حتى أكادُ أنسى يميني من يساري،
لا ضياعًا،
بل دهشةً،
ولا ضعفًا،

بل انبهارًا،
فما أعظمَ نورًا يجعلُ القلبَ ينسى كلَّ ما سواه.

ذلك النورُ ليس شمسًا فقط،
ولا قمرًا فقط،
بل هو نورُ المحبة،
ونورُ الإيمان،
ونورُ الأمل،
ونورُ الإنسان حين يصدقُ مع نفسه،
ويصافحُ السماءَ بقلبٍ نقي.

وفي داخلي سرٌّ كبير،
سرٌّ لا يُوزنُ بالميزان،
ولا يُقاسُ بالكلام.
سرٌّ إذا نطقتُ به،
أزهرتْ الحروف،
وإذا كتمتُه،
بكى الصمت.
سرٌّ لا يعرفه إلا القلب،
ولا يقرؤه إلا المحبون.

أنكروه...
لأنَّهم لم يعرفوا لغةَ الأرواح،
وأرادوا أن يقيسوا المحبةَ بالأرقام،
والشوقَ بالمسافات،
والأحلامَ بالحدود.
فضربوا كفًّا بكف،
ودقُّوا الرؤوسَ على الجدران،
وظنوا أنَّ الحقيقةَ تُحجَب،
وأنَّ الشمسَ يُطفئها الغبار.

لكنَّ الحبَّ يبقى،
والنورَ يبقى،

والوطنَ يبقى،
والذكرى تبقى.

فما ضاعَ قلبٌ عرفَ طريقَ الوفاءِ،
ولا تاهَ عاشقٌ جعلَ الأملَ دليلَه،
ولا خابَ مسافرٌ حملَ وطنَه بين ضلوعه،
وجعلَ الدعاءَ زادَه،
والإيمانَ رفيقَه،
والحبَّ رايتَه.

يا جارتي...
إن مررتِ يومًا ببابِ دارنا،
فسلِّمي على الجدران،
فإنَّها تحفظُ صوتي.
وسلِّمي على النوافذ،
فإنَّها تعرفُ انتظاري.
وسلِّمي على الأشجار،
فإنَّها شهدتْ طفولتي.
وسلِّمي على الطريق،
فإنَّه ما زال يحتفظُ بأثرِ خطاي.

وقولي للديار:
إنَّ الغائبَ لم ينسَ،
وإنَّ البعيدَ ما خان،
وإنَّ القلبَ ما زالَ يزرعُ في كلِّ صباحٍ وردةً من رجاء،
وفي كلِّ مساءٍ نجمةً من وفاء.

فإذا كتبَ اللهُ اللقاء،
عدتُ إليكم كما يعودُ المطرُ إلى الأرضِ العطشى،
وكما يعودُ الطيرُ إلى عشِّه،
وكما يعودُ النهرُ إلى البحر.
أعودُ بقلبٍ أكثرَ حبًّا،
وروحٍ أكثرَ صفاء،
وحلمٍ أكثرَ إشراقًا،

لأقولَ للزمان:
إنَّ المحبةَ لا تموت،
وإنَّ الوفاءَ لا يشيخ،
وإنَّ الديارَ تسكنُ القلبَ قبل أن يسكنَها الإنسان.

وهكذا أمضي...
بينَ شوقٍ وصبر،
وبينَ غيابٍ وانتظار،
وبينَ دمعٍ وابتسام،
أُردِّدُ في سري:
ما دامَ في القلبِ حبٌّ،
فلن يضيعَ الطريق،
وما دامَ في السماءِ نجمٌ،
فلن ينطفئَ الرجاء،
وما دامَ للوطنِ نبضٌ في الروح،
فسيبقى اللقاءُ وعدًا جميلًا،
ويبقى الحبُّ أجملَ أسرارِ الحياة.

المحتويات

1 – أحلام الربيع
2 - الانين بين رماد الأمس و وهج الرجاء
3 – عشمتني بالحلق ، فخرمت أذني للسراب

4 – مقبرة الأسرار
5 – على باب قليك
6 – حين يجور الزمان .. يبقى النور في القلوب
7 - نشيد الوطن بين يدي ملك عادل
8 – أحبك بلا حدود
9 - قبلة خلقت الحياة لنا
10 – في نبضك . أزهار القلب
11- أحلام الحطام
12 – عيونها الجاحدة
13 – 8لى ضفاف الأمل و نوافذ الشوق
14 – عينيك
15 – أمام عينيها انهارت كل الأكاذيب
16 - عودة الطائر الشريد
17 – التفاحة و القدر
18 - خواطر في التصوف
19 - المرأة الكاذبة
20 .. أين أملي و حلمي ؟
21 - تاجر الحب
22 – الجمال الفضي
23 - **حينَ أحبَّ القمرُ قلبًا فقيرًا**
24 - **حين ودعت الديار .. أزهرت في القلب ألف دار**